



كلية العلوم
الإنسانية والاجتماعية
FACULTY OF HUMANITIES
AND SOCIAL SCIENCES

جامعة محمد بوضياف - المسيلة
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم الفلسفة



جامعة محمد بوضياف - المسيلة
Université Mohamed Boudiaf - M'sila

التربية على المواطنة في الفكر السياسي الحديث - جون جاك روسو أنموذجاً -

مذكرة مكملة لمقتضيات نيل شهادة الماستر في الفلسفة
تخصص: فلسفة عامة

الأستاذ المشرف:

د/ علي المختار أرفيس

إعداد الطالبة:

فريدة عقون

لجنة المناقشة:

الصفة رئيسا	جامعة محمد بوضياف بالمسيلة	د. خيرة بورنان
مشرفا ومقررا	جامعة محمد بوضياف بالمسيلة	د. علي المختار أرفيس
ممتحنا	جامعة محمد بوضياف بالمسيلة	د. ربعة مجكود

السنة الجامعية: 2023-2024



Bismillah



Shahada

شكر وعرقان

قال صلى الله عليه وسلم: ﴿من لم يشكر الناس لم يشكر الله ومن أهدى إليكم
معروفا فكافئوه فإن لم تستطيعوا فادعوا له ﴿
وعملا بهذا الحديث واعترافا بالجميل، نحمد الله عز وجل ونشكره على إتمام هذا

العمل

إلى جميع الأساتذة الأفاضل

إلى من مهد لنا طريق العلم والمعرفة

أتقدم بالشكر الجزيل إلى الأستاذ المشرف " علي المختار أرفيس " الذي رافقني

طيلة إنجاز مذكري ولم يبخل عليّ بتوجيهاته وإرشاداته القيمة

راجية من الله عز وجل أن يسد خطاه ويحقق مناه فجزاه الله كل خير

وأخيرا أعبر ببالغ تحياتي إلى كل من ساعدني من قريب أو من بعيد

في إنجاز هذه المذكرة



إهداء

إلى والدي: أبي رحمه الله وطيب ثراه وجعله من الخالدين في الفردوس الأعلى
وأمي حفظها الله ورعاها وأمدها بالصحة والعافية
من شجعاني ولم يبخل في أن أكون الأفضل بكل سعادة الدنيا
من أشرباني مبادئ وأخلاقي التي أعتز بها
إلى عائلتي الصغيرة: زوجي وأولادي الذين لطالما كانوا لي العون والسند من الله
الرزاق أحمد الله على ضياء حياتي بهم وأدم حفظهم يا رحمان
إلى عائلتي الكبيرة كل باسمه صغيرهم وكبيرهم دون أن أنسى إهدائي الخاص إلى
روح صديقتي غضبان سعيدة رحمها الله
إلى بلدي الجزائر
أهدي هذا العمل المتواضع

مقدمة





مقدمة:

لا أحد ينكر أن الإنسان اجتماعي بطبعه، لا يستطيع العيش بمفرده ميال إلى الاجتماع مع غيره، ويشعر دائما بحاجة إلى الجماعة، إذ يتعذر استقلاله عنها. إلا أن اجتماعه هذا كان يقتضي حفظ لكل إنسان حقوقه وأداء واجباته، فكانت الضرورة لإقامة تنظيم سياسي يمكن الإنسان من المحافظة على حياته وحقوقه وحقوق غيره، لذلك كان الانتقال من الحالة الفردانية إلى الحالة الاجتماعية، انتقال إلى كونه مواطنا يمارس السلوك السياسي، وهذا الوضع كان ثمرة تطور طويل، مر عبر مراحل، بعد أن وضع بذوره الأولى الفكر الشرقي القديم، وامتد إلى عهد اليونان، والرومان، ثم الفكر الوسيط، والحديث ومازال يتطور إلى يومنا هذا.

فكان الإنسان السياسي الهدف والمبرر النهائي للدراسات السياسية، التي ذاع صيتها لاسيما في القرن الثامن عشر، أين كان موضوع المواطنة وحقوق الإنسان والمواطن وواجباته وحقوقه، محل حديث الخطابات الفلسفية والخطابات السياسية

لكن هذا لم يحصل إلا بعد جهد طويل ونضال خاضه الفلاسفة من أجل أن يصبح الإنسان مواطنا داخل دولة، يتمتع بحقوق مقابل الواجبات الملقاة على عاتقه، ويعود الفضل في مقاربة هذا الموضوع من زاوية فلسفية إلى بعض فلاسفة العصر الحديث، ومن بينهم فلاسفة نظرية العقد الاجتماعي، خاصة الفيلسوف الفرنسي جون جاك روسو، الذي كان معنيا بالبحث في سبل التقدم والنهضة، ووجد أن هذا الأمر لن يحصل على الصعيد السياسي ما لم يصبح الفرد مواطنا في دولته له الحق في اختيار حكامه، واختيار نظام الحكم كذلك، فكان لزاما أن يحضر الفرد الذي سيصبح مواطنا مكتسبا لصفة المواطنة من خلال التربية على المواطنة، والذي كان موضوعا أساسيا في الفكر السياسي لجون جاك روسو حين رأى وجوب تغيير أوضاع المجتمع الأوروبي فقدم نظرية العقد الاجتماعي الذي ينتقل بموجبه الإنسان من حالة الفطرة الأولى، إلى حياة مدنية يكون فيها الفرد مواطنا يتمتع فيها بحقوق المواطنة والتأهيل لها



أي التربية على المواطنة المنبثقة من فكر جون جاك روسو حول تربية الإنسان وتأهيله ليكون مواطناً له حقوق وعليه واجبات.

ومن هنا جاءت فكرة موضوع دراستنا ألا وهي: التربية على المواطنة في الفكر السياسي الحديث، وبالتحديد عند "جون جاك روسو".

حيث وقع اختيارنا على هذا الموضوع الذي أخذ مساحة كبيرة في الدراسات السياسية والاجتماعية والتربوية، وتعددت أبعاده بعلاقته الممتدة عبر قضايا تتمحور حول علاقة الفرد بالمجتمع والدولة، وانتجت أطروحات تنوعت بتنوع مبادئ الفكر ونظرياته السياسية.

وقد تداخلت أسباب عديدة لاختيارنا لهذا الموضوع بالدراسة والبحث، منها أسباب ذاتية وأخرى موضوعية، تتمثل الأولى في الميل والرغبة في دراسة مواضيع الفكر السياسي، وممثليه لاسيما ذلك الذي قيل عنه الكثير، ومن بين ما قيل عنه الرجل المتناقض، الرجل الخطير، مفجر الثورة الفرنسية الذي قال عنه نابليون: "لو لم يكن روسو ما حدثت الثورة الفرنسية"¹ بالإضافة إلى إعجابنا بفكره كونه فيلسوف عمل على تغيير مجرى الأحداث الاجتماعية والسياسية في وقته، ورد الاعتبار لإنسانية الإنسان وتنظيم واجباته وفق ما يمليه القانون، فكانت أفكاره الممهدة للرئيسي للثورة الفرنسية وبناء الدولة الحديثة ليس في فرنسا فقط أو أوروبا، بل في الكثير من دول العالم كما حاولت قلب الأنظمة السياسية والممارسات الكلاسيكية والأخذ بما يتماشى مع متطلبات الحياة وإعطاء قيمة للأفراد الذين لم يكن ينظر إليهم إلا كونهم محكومين.

لقد أصبح الفرد بعد أفكار روسو مصدر لا غنى عنه في استمداد شرعية السلطة، إضافة إلى ذلك يدفعنا الفضول لمعرفة شخصية روسو أكثر التي اقل ما يقال عنها شخصية جدلية ثورية الأفكار، وأكثر ما دفعنا لهذه الدراسة الرغبة في معرفة كيف تغيرت حياته من رجل عادي تتلاطمه طرق الحياة إلى رجل قاد بأفكاره الشعب الفرنسي إلى الثورة على الأوضاع التي كان

¹ محمد عطية الأبراشي: جان جاك روسو وآراءه في الإصلاح الاجتماعي، دار القومية للطباعة والنشر، د ط، د ت، ص 111



يتخبط فيها، فلقد وصف كتابه "العقد الاجتماعي" بإنجيل الثورة الفرنسية، مدافعا فيه عن الحرية، حرية الشعوب وحرية الإنسان، الذي بدأه بعبارة: "ولد الإنسان حرا" هذه الحرية التي في نظرنا تفتقد في وقتنا الحالي.

أما الأسباب الموضوعية فتتمثل في السعي للوقوف على أهم معالم الفكر الروسي في السياسة والأخلاق، وتسليط الضوء على موضوع التربية على المواطنة من خلال محاولة معرفة واقع المواطنة وكيفية التربية عليها، والجديد الذي قدمه روسو في التربية على المواطنة، وما مدى أصالة أبحاثه وإبراز أهمية المواطنة في استقرار المجتمعات، وتحسين الأفراد والأنظمة السياسية وكذلك لكونه موضوع يعالج ويمس قضايا ومشاكل مجتمعاتنا الحالية. فهو يرتبط بالسياسة التي قال عنها روسو: "كل شيء مرتبط بالسياسة"، وكذا مكانة المواطنة وأهميتها في الوقت الحاضر وإبراز أهمية مفاهيم التربية والمواطنة في تكوين الإنسان المواطن المتشعب بحب الوطن، وروح الانتماء الواعي بحقوقه وواجباته الوطنية والإنسانية بالإضافة إلى حيوية وقيمة الفكر السياسي الذي أفضى إلى الديمقراطية، وكما هو معلوم فإن الاستفادة من التاريخ أو الماضي ضرورة للحاضر والمستقبل.

محاولين من خلال دراستنا هذه البحث عن التربية على المواطنة في الفكر السياسي الحديث من خلال فلسفة جون جاك روسو والإجابة على الإشكالية المحورية التالية:

ما طبيعة المواطنة عند جون جاك روسو؟ وما هي التربية التي ارتآها في ذلك؟

ولقد سعينا في بحثنا هذا رسم الصورة الحقيقية لفكر روسو حول هذا الموضوع دون مبالغة أو تقييد. وكان منهجنا في ذلك المنهج التحليلي الوصفي، الذي يسمح لنا بسرد وعرض آراء روسو بطريقة تحليلية وأحيانا مواجهتها بأفكار مؤيدة أو معارضة.



معتمدين على مصادر ومراجع أهمها: "كتاب ايميل" وكذا "العقد الاجتماعي" لروسو وعدة مراجع منها كتاب تطور الفكر السياسي "لجورج سباين" وتاريخ الفكر السياسي من المدينة إلى الدولة القومية "لجان جاك شوفالبيه" بالإضافة إلى عدة معاجم وموسوعات ودوريات ولقد اقتضى منا هذا البحث الخطة التالية:

مقدمة: حاولنا فيها رسم الخطوط العريضة للموضوع وتقديم أهم الإشكاليات التي يطرحها والمنهج الذي سرنا عليه وكذا الصعوبات التي واجهتنا وتقسيم الموضوع إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول: تحت عنوان مفهوم التربية والمواطنة في الفكر السياسي الغربي والعربي الإسلامي يتضمن ثلاثة مباحث أولها عرفنا فيه مفهوم التربية والمواطنة لغة واصطلاحاً، ثانيها تعرضنا فيه للتربية على المواطنة في الفكر السياسي الغربي من خلال أفلاطون، القديس أوغسطين، مونتسكيو وفولتير وثالثها عرضنا فيه التربية على المواطنة في الفكر السياسي العربي الإسلامي من خلال الفارابي، رفاعه رافع الطهطاوي، خير الدين التونسي ومحمد عابد الجابري.

الفصل الثاني: تحت عنوان التربية الطبيعية والتأهيل للمواطنة في فكر جون جاك روسو وبه ثلاث مباحث أولها تعرضنا فيه لحياة روسو وظروف عصره، ثانيها تحدثنا فيه عن التربية والاجتماع الإنساني وثالثها عرضنا فيه المبادئ التربوية العامة عند روسو.

الفصل الثالث: تحت عنوان المواطنة والحكم الديمقراطي من منظور جون جاك روسو وبه ثلاث مباحث أولها تحدثنا فيه عن العقد الاجتماعي والمواطنة، ثانيها نعرض فيه الإرادة العامة والسلطة المطلقة وثالثها بينا فيه أشكال الحكومة وتحقيق الديمقراطية.

خاتمة: ضمناها أهم النتائج والملاحظات التي توصلنا إليها.



مقدمة

ومن دون شك فقد واجهتنا عدة صعوبات وعراقيل لا يخلو منها بحث أكاديمي نذكر منها: الحدود الزمنية وقصر وقت البحث الذي لم يساعدنا في التقصي والبحث أكثر، خاصة وان فكر روسو تعددت فيه الأبحاث، الكتب والدراسات فكان العائق الثاني بعد الوقت كثرة الكتب والمراجع التي تناولت روسو وفلسفته بالدراسة والبحث، والتي كان علينا الانتقاء منها، وضيق الوقت يصعب علينا ذلك ونحمد الله على توفيقه وإعانتته لنا على إتمامنا لهذا العمل والله الحمد من قبل ومن بعد.

الفصل الأول

مفهوم التربية والمواطنة في الفكر السياسي

الغربي والعربي الإسلامي

المبحث الأول: مفهوم التربية والمواطنة (لغة واصطلاحاً)

المبحث الثاني: التربية على المواطنة في الفكر السياسي الغربي

المبحث الثالث: التربية على المواطنة في الفكر السياسي العربي الإسلامي

إن التربية على المواطنة من المفاهيم التي شهدت تطورا ملحوظا عبر مراحل التاريخ، إنطلاقا من التراث الفكري للمجتمعات القديمة، اليونانية والرومانية، مروراً بالعصور الوسطى، والعصر الحديث إلى يومنا هذا، حيث لم يتبلور المفهوم إلا بعد ظهور الدولة بشكلها المعروف، مسجلاً تحولا في بنائه تبعاً للمتغيرات التي شهدها العالم خلال هذه المدة الزمنية، فكان حضوره مكثفا في الفكر السياسي مبرزاً مفهوم المواطنة والتربية عليها وعلاقتها بالحرية والحقوق والواجبات وحتى الديمقراطية، من خلال الوقوف على بعض النماذج الفلسفية في الفكر السياسي سواء الغربي أو العربي الإسلامي، وإيماننا بأن ما يُمكن الوقوف على حقيقة أية نظرية هو الرجوع إلى أصولها والعوامل المؤثرة فيها عبر مختلف العصور، بل وحتى ما جاء بعدها من أفكار وآراء، وقد أفرزت تلك التجارب التاريخية معاني مختلفة للتربية على المواطنة لا يمكن فهمها بعيداً عن الظروف المحيطة بها لمفكرين غربيين أو عرب، قبل جون جاك روسو وحتى بعده، لذلك أردنا أن نحيط بمفهوم التربية على المواطنة في مختلف العصور سواء في الفكر السياسي الغربي أو حتى الفكر العربي الإسلامي. والبحث عن مفهوم التربية والمواطنة.

فما هي التربية؟ وما المواطنة؟ وماذا نقصد بالتربية على المواطنة؟ وكيف نظر الفلاسفة والمفكرين لهذه المسألة؟

المبحث الأول: مفهوم التربية والمواطنة (لغة واصطلاحاً)

مفهوم التربية

لغة:

اعتماداً على المعاجم العربية نجد أن كلمة تربية من الفعل ربا يربو حيث جاء في لسان العرب لابن منظور، ربا: ربا الشيء يربو ربوةً ورباءً. بمعنى زاد ونمى وأزبته بمعنى نميته.

ونقول ربا المال: زاد بالربا، والمربي هو الذي يأتي الربا. ورَّبه، يُرِّبه، ربًّا: أي ملكه وطالت مربيته أي مملكتهم بمعنى السيادة والإمرة¹.

وقد جاء في قوله تعالى: "وَمَا أُتِيتُمْ مِنْ رِبا لِيَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَاءَ أُتِيتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعَفُونَ"².

وكذلك قوله تعالى: "وترى الأرضَ هامدةً فإذا أنزلنا عليها الماءَ اهتزتْ وربتْ وانبتتْ من كلِّ رَوْحٍ بهيج"³.

وقوله تعالى: "قال ألم نتركك فينا وليداً ولبنت فينا من عمرك سنين"⁴.

كل هذه الآيات الكريمة تدل على المعنى اللغوي للتربية، والذي يعني الزيادة والنمو، واستخراج شيء كامل أو مستتر، وزيادته بالرعاية والعناية⁵.

وقال الأصمعي: رربوت في بني فلان أربو: يعني نشأت فيهم ورببت فلان أربيته تربية وتربيته وربيته بمعنى واحد.

إن التعريف اللغوي للتربية يحيلنا إلى جانبين هاميين، أولهما النمو والزيادة المعرفية والفكرية للمتربي من خلال الفعل التربوي تنمو قدراته العقلية، وتتغذى كما يتغذى الجسم

¹ ابن منظور، لسان العرب، تحقيق عبد الله علي كبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، ج3، دت، ص 1572-1573.

² سورة الروم: الآية 39

³ سورة الحج: الآية 5.

⁴ سورة الشعراء: الآية 18.

⁵ عبد الله قلي وفضيلة حناي، التربية العامة، د ن، الجزائر، 2009، ص 11.

حتى بلوغه مرحلة النضج العقلي، وثانيهما أن هذه التربية لا تتم دفعة واحدة وإنما تكون على مراحل متباينة وتدرجية مثل النمو الجسماني، وان هذه التربية تتم بوجود فاعل حريص يرعى ويحافظ على المتربي لبلوغ منزلة رفيعة من التربية.

كما تعني التربية في اللغة أيضا تغذية الجسم وتربيته بما يحتاج إليه من مأكّل، ومشرب، ليشب قويا ويصبح قادرا على مواجهة تكاليف الحياة ومشاقها، فتغذية الإنسان والوصول به إلى حد الكمال، هذا هو معنى التربية¹.

أما في اللاتينية فقد استخدمت كلمة تربية للدلالة على النباتات والحيوانات وللدلالة على الطعام وعلى تهذيب بني البشر دون تفرقة.

وكلمة Education مشتقة من الفعل اللاتيني Educo والتي تعني بالعربية القيادة

والتوجيه².

اصطلاحا:

هي التنشئة والتنمية وهناك تعاريف كثيرة اختلفت نظرة المرين والفلاسفة حيث يعرفها "جميل صليبا" في معجمه الفلسفي معتبرا أنها تبليغ الشيء إلى كماله، أو هي كما يقول المحدثون تنمية الوظائف النفسية بالتمرين حتى تبلغ كمالها شيئا فشيئا، نقول: ربيبتُ الولد أي قويت ملكاته، ونميت قدراته، وهذبت سلوكه، حتى يصبح صالحا للحياة في بيئة معينة، ونقول تربي الرجل اذا أحكمته التجارب وأنشأ نفسه بنفسه، ومن شروط التربية الصحيحة أن تنمي شخصية الطفل من الناحية الجسمية والعقلية والخلقية، حتى يصبح قادرا على الطبيعة ويتجاوز ذاته ويعمل على إسعاد نفسه وإسعاد الناس، وتعد التربية ظاهرة اجتماعية تخضع لها الظواهر الأخرى في نموها وتطورها³.

¹ حسن الجباري، أصول التربية في ضوء المدارس الفكرية، دار الأمل، الأردن، 1993، ص 266.

² إبراهيم عبد الله ناصر وعاطف عمر بن طريف، مدخل إلى التربية، دار المفكرون للنشر والتوزيع، عمان، د ت، ص 206.

³ جميل صليبا، المعجم الفلسفي، جزء 1، دار الكتاب اللبناني، جزء 10، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ص 266.

ويقدم "اندري لالاند" في موسوعته الفلسفية تعريفا للتربية، حيث يؤكد أنها مسار يقوم على تطور وظيفة أو عدة وظائف، تطورا تدريجيا بالدربة على تجريدها وإتقانها، وهي ذات معنيين، معنى أعم، والتربية المحددة بهذا النحو يمكنها أن تتشأ من عمل الآخر، أو من عمل الكائن ذاته الذي يكتسبه، وينحو خاص هي تهذيب الشبان أو التربية سلسلة عملية إجرائية يدرّب بها الراشدون الصغار من جنسهم، ويشجعون لديهم نمو بعض النزعات، وبعض العادات، عندما تستعمل الكلمة بمفردها، تقال في الأغلب على تربية الأطفال من الجنس البشري¹.

وللتربية طريقتان الأول أن يربى الطفل بواسطة المربي، والثاني أن يربي نفسه بنفسه، فإذا أخذت التربية بالطريق الأول كانت عمل موجه يتم في بيئة معينة وفقا لفلسفة معينة، وإذا أخذت بالطريق الثاني كانت عملا ذاتيا يترك فيه الطفل على سجيته ليتعلم من نشاطه القصدى².

كذلك التربية هي تنمية الوظائف الجسمية والعقلية والخلقية، كي تبلغ كمالها عن طريق التدريب والتثقيف. وبالتالي فهي علم يبحث في أصول هذه التنمية، ومناهجها، وعواملها الأساسية، وأهدافها الكبرى. وتعد التربية ظاهرة اجتماعية تخضع لما تخضع له الظواهر الأخرى في نموها وتطورها.³

كذلك نجد أن للتربية عدة معاني:

- التربية بالمعنى الفردي: هي إعداد الفرد لحياته المستقبلية، وبذلك فهي تعدّه لمواجهة الطبيعة وتكشف عن مواهب الطفل، واستعداداته تعمل على تفتحها وتنميتها وتغذيتها.

¹ - أندري لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد 01، منشورات عويدات، بيروت، ط2، 2001، ص 323.

² - جميل صليبا، المرجع نفسه، ص 26.

³ - إبراهيم مذكور، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة للشؤون المطابع، القاهرة، 1983، ص 42-43.

-التربية بالمعنى الاجتماعي: هي تعلم الفرد كيف يتعامل مع مجتمعه وتعلمه خبرات مجتمعه السابقة، والحفاظ على تراثه، فهي تحرص على تمكين المجتمع من التقدم تدفعه نحو التطور والازدهار¹.

-التربية بالمعنى المثالي: تعني الحفاظ على المثل العليا للمجتمع الأخلاقية والاقتصادية والإنسانية النابعة من تاريخ الأمة ومن خبراتها، ومن دينها، وعن طريق تعاملها وعلاقتها بالأمم الأخرى وعلاقات الأفراد فيها وغيرها.

أما "سبنسر" فيرى في التربية كل ما نقوم به من أجل أنفسنا وما يقوم به الآخرون من أجلنا بغية التقرب من كمال طبيعتنا، وينبغي أن يكون الغرض من التربية الحصول بأكمل وجه ممكن على المعرفة المهيأة لإنماء الحياة الفردية والاجتماعية.²

للتربية أهمية كبيرة في إعداد النشء وتعزيز إنسانية الإنسان وتكوين الفرد المتوازن وتهذيب المجتمع، حيث تضيء على الفرد رقياً سلوكياً وروحياً، وتصلق شخصيته وتزود المجتمع بالأسس الأخلاقية السليمة.

مفهوم المواطنة

لغة: إن لفظ مواطنة أو مواطنة لا يوجد في قواميس اللغة العربية إلا فيما ندر. ويذكر "الجابري" أنه لم يعثر على كلمة المواطنة في كل معاجمنا العربية القديمة،

كلسان العرب، والقاموس المحيط والصاح وتاج العروس ... الخ
أما في نصوص الكتاب، والأدباء فاللفظ غائب أيضاً، ولم يعثر له على أثر إلا في كتاب "خريدة القصر وجريدة العصر" لعماد الدين الأصبهاني "الذي عاش في القرن السادس الهجري وموضوعه أعيان وفضلاء عصره من الخلفاء إلى الشعراء، منطلقاً من بغداد إلى

¹ - عبد الله قلي وفضيلة حناشي، المرجع السابق، ص 13.

² - عبد الله سيد الدائم، التربية عبر التاريخ من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين، دار السلام، ط5، بيروت، 1984، ص 481.

المغرب والأندلس. وقد وردت كلمة مواطنة مرة واحدة في هذا الكتاب الضخم، في رسالة نقلها يمدح فيها كاتبها، بيت من يمدح بقوله عنها:

"مكتسبة من الأشباح القدسية علاءا *** ومنتسبة إلى الأشخاص الأنسية ولاءا
مترفعة عن مواطنة الأغفال *** ومقارنة أهل السفال"

وهي بمعنى المصاحبة والعيش¹.

ولفظ المواطنة لا وجود له في المعاجم العربية القديمة لان العرب لم تستخدم مصطلح المواطن بهذه الصيغة، لأن حياة العرب كانت تعتمد على النظام القبلي بحكم البيئة الجغرافية.

أما كلمة وطن فإن وجودها في معاجم اللغة العربية حاضرا للتدليل على محل الإقامة فهي مأخوذة من الوطن، المنزل الذي نقيم به وهو موطن الإنسان ومحلّه، وَطَنٌ، يَطُنُّ وَطَنًا أقام به الوطن والبلد، اتخذ وطنا وتوطين البلد واتخاذها وطنا وجمع الوطن أوطان وهو منزل إقامة الإنسان ولد فيه او لم يولد².

وجاء في قوله تعالى: "لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذَا عَجِبْتُمْ كَثَرْتُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَابْتَدَأْتُمُ الْيَمِينَ" (التوبة: 25).
أما البستاني فلا يختلف كثيرا عن ابن منظور في لسان العرب وطن بالوطن وبالمكان يطن وطنا أقام به، وطن البلد توطينا اتخذها محلا ومسكنا يقيم به، ووطن نفسه على الأمر مهدها لفعله ووطنه على الأمر مواطنة موافقة⁴.

قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة الواو والطاء والنون كلمة صحيحة، فالوطن محل الإنسان وأوطان القيم مرابطها، وأوطنت الأرض اتخذتها وطنا⁵. وقال الجوهري في

¹ - <http://www.aljabired.net/nation-citoyen2.htm>

² - ابن منظور، لسان العرب، ص 338.

³ - سورة التوبة، الآية 25

⁴ - بطرس البستاني، محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت، ص 975.

⁵ - أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج6، ص 20.

الصاحح تاج اللغة وصاحح العربية الوطن محل الإنسان وأوطنت الأرض ووطنها توطينا، واستوطنتها أي اتخذتها وطنا، وكذلك الاتطان هو افتعال منه¹، وذهب العرب إلى أن المواطنة مصطلح مستحدث في اللغة العربية للتعبير عن الكلمة (citizien-hip). وفي الموسوعة العربية العالمية تعرف بانها مصطلح يشير إلى الانتماء إلى الأمة أو وطن. وترجع كلمة (Citoyennete) إلى لفظة (cite) المشتقة منها وتعني المدينة وهي بدورها مأخوذة من لفظة (civitas) اللاتينية التي تعني دولة المدينة الإغريقية القديمة، وهو مجتمع أوسع من مجتمع المدينة بكثير.

إذن مصطلح المواطنة من المصطلحات الوافدة في اللغة العربية فتأخذ من الفعل الثلاثي "وَطَنَ" بمعنى المحل، ومن الفعل الرباعي وَاطَنَ على وزن فاعل بمعنى التشارك في المكان، كما أن في اللغة العربية القديمة لا نلاحظ ارتباط الوطن بالمشاعر بقدر ارتباطه بالمكان المؤقت.

فالمواطنة إذن مرتبطة بمواطن الإنسان ومستقرة على الوضعية السياسية والاجتماعية والمدنية والحقوقية للفرد في الدولة.

والموسوعة العربية العالمية تعرف المواطنة بانها: اصطلاحا يشير إلى الانتماء إلى أمة أو وطن...

والمصطلح في أغلبيته مفهوم غربي نشأ في اليونان وروما وجرى استخدامه في الدول المدنية الصغيرة في أوروبا في العصور الوسطى، ثم امتد استخدامه بشكل هائل في المجتمعات الرأسمالية في القرنين التاسع عشر والعشرون ميلادي.

اصطلاحا:

المواطنة أو المواطنة عموما هي صفة المواطن التي تدل على انتمائه إلى الوطن، أي ما يجعل الشخص منتميا إلى وطن، أنها أخلاقية المواطن²، أي ما يتمتع به المواطن

¹ - إسماعيل بنجبها، الجوهرة الصاحح تاج اللغة، ج6، ص 14.

² - عبد الحلو، معجم المصطلحات الفلسفية، فرنسي عربي، مكتبة لبنان، د ط، د ت، ص 24.

من الحقوق وما تجب عليه من واجبات، وأن المواطنة من الناحية السياسية تعتبر شكلا من أشكال التعاقد بين الفرد والدولة التي ينتسب إليها عن طريق الولادة في أراضيها أو بحكم الوراثة عن أبيه الذي يحمل مواطنة تلك الدولة، وبكلمة أخرى فإن المواطنة تمثل الوضع القانوني للأفراد كرباط دائما يشدهم للدولة، بل هي التي تمنح صاحبها حقوقا سياسية واجتماعية كاملة، كحق حرية التعبير والعبادة وحق الاقتراع وحق العمل والتمتع بحماية القانون وتولي الوظائف السياسية ومقابل هذه الحقوق تترتب على المواطن مجموعة من الواجبات كواجب الولاء للوطن¹، وخدمته في أوقات السلم والحرب والتعاون مع المواطنين الآخرين في تحقيق الأهداف القومية، وهذه هي ميزات المواطنة، هذه الأخيرة التي يعرفها "أحمد زكي بدوي" على أنها صفة المواطن والتي تحدد حقوقه وواجباته الوطنية التي يعرفها عن طريق التربية الوطنية²، إذ أن المواطنة حسب "سالم علي سالم القحطاني" تعلم وتعليمها هو غرس السلوك الاجتماعي المرغوب فيه حسب قيم المجتمع الذي يعيش فيه المواطن³، الذي تعرفه أغلب الكتب على أنه الفرد الساكن في الدولة المعترف بحقوقه السياسية فيها⁴ كحق المشاركة القانونية والإدارية في سلطة السيادة فيها. وتتم ممارسته لهذه الحقوق بالانتخاب أو الخدمة الفعلية في وظيفة حكومية فيها⁵.

والمواطنة بمعناها السياسي الكلاسيكي تعني باللاتينية عضوا في الدولة أو جزء منها وليس كل قاطن في الدولة عضوا فيها بل فقط ذلك المسؤول عن (Oikia) بيت أي كل من هو أب عائلة⁶.

¹- منير البعلبكي، موسوعة المورد، دائرة المعارف، دار الملايين، بيروت، ط1، ج3، 1980، ص 23-24.

²- أحمد زكي بدوي، معهد العلوم الاجتماعية إنجليزي فرنسي عربي، مكتبة لبنان، د ط، 1993، ص 60.

³- سالم علي سالم القحطاني، التربية الوطنية مفهومها أهدافها تدريسها، مجلة رسالة الخليج العربي، مكتب التربية العرب بدول الخليج، العدد 96، 1996، ص 19.

⁴- les élevés de l'école boudamontal, dictionnaires de la langue français, institut pédagogique national algérie, son édition son année, P 158.

⁵- رايmond كافيليا كيتيل، العلوم السياسية، ت فاضل زكي محمد، مكتبة النهضة، بغداد، نيويورك، ج1، ط1، 1963، ص 205.

⁶- بشارة عزيز، المجتمع المدني، دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 2000، ص 02.

ولقد مر مبدأ المواطنة عبر التاريخ بمحطات نما فيها وتطور حتى وصل إلى دلالاته المعاصرة حيث أن أقرب معنى لمفهوم المواطنة المعاصرة في التاريخ القديم هو ما نجده عند اليونان، توصلت إليه الدولة (المدينة) عند الاغريق والذي شكلت الممارسة الديمقراطية لأثينا نموذجا له.

ويرى "عزمي بشارة" أن المواطنة هي القاعدة التي تنطلق منها المطالبة بالديمقراطية ليس بغرض الوصول إلى السلطة فحسب بل بغرض ممارسة الديمقراطية وتوسيع مفهوم المواطنة ذاته وان المواطنة هي الوجه الآخر لسيادة الامة وهي تنظيم محدد جدا للعلاقة بين الفرد والدولة وبين الفرد والمجتمع أو بقية الأفراد.

إن مفهوم المواطنة يمتد في عمق التاريخ الانساني، فقد تجسد هذا المفهوم قبل نشأة التجمعات البشرية في صيغة الانتماء للقرابة البيولوجية كما في مثل اول التجمعات البشرية ثم ظهرت المواطنة في صيغة الانتماء إلى الافكار الجامعة والقبيلة كما في الأسر الزراعية والأسر الفرعونية المصرية القديمة ثم في شكل الانتماء للكهنوتية والرمزية الاسطورية كما في المجتمع الهندي البوذي¹، ويجمع جل المؤرخين أن هذا المصطلح قد اسس له الاغريق القدامى فالحرية واحترام القوانين والمثل العليا والعدالة والديمقراطية تضمنها إنتاجهم الفكري الفلسفي متجليا في كتاباتهم.

والمواطنة هي التي تسمح للفرد في مجتمع او دولة ليصبح مواطنا ويتم الاعتراف به رسميا كعضو فيها ومن هذا المنطلق فان المواطنة مكونة من مجموعة من العلاقات التي تتم بين الفرد والدولة والتي تتضمن مع الحقوق والواجبات وقد تتسع لتشمل مجريات الحياة وقد أورد "رايموند كتيل"^{*} تعريفا للمواطنة قائلا بانها تلك العاطفة القوية التي يحس بها المواطن نحو وطنه العزيز وان المواطنة الصحيحة هي ما يجب أن يؤديه من واجبات

¹ - العربي فرحاتي، تربية المواطنة، سلسلة دفاتر المخبر، جامعة بسكرة، العدد 01، 2005، ص 46-47.

* - رايموند برنارد كتيل (1905-1998): عالم نفس أمريكي من أصل بريطاني صنف من أكثر علماء النفس المؤثرين والبارزين في القرن العشرين.

اتجاهه¹ ونستطيع القول أن مفهوم المواطنة يتلخص في كونها نظام كامل مبني على حقوق الفرد وواجباته.

ويبقى مفهوم المواطنة كغيره من المفاهيم في العلوم الإنسانية والاجتماعية التي يدور حولها جدل كبير، لذا يصعب أن نجد لها تعريفاً محدداً يرضى به جميع المختصين في هذا المجال.

والتربية على المواطنة هي بناء الإنسان الحر الديمقراطي الذي يملك القدرة على المشاركة في الحياة السياسية مشاركة فعالة وحيوية، فهو الإنسان الذي يتوجب على التربية أن تقوم بإعداده وتحضيره إنسانياً للمشاركة الحرة في صنع المصير الاجتماعي للمجتمع الذي ينتمي إليه، حيث يتفق المختصون على اعتبار التربية على المواطنة هدفاً اسمياً لكل نظام تربوي ويختلفون في تعريفها فبينما عرفها البعض على أنها عملية صنع القرار رأى البعض الآخر أنها إعداد المواطن للاشتراك الفاعل في المجتمع واعتبرت أيضاً أنها التنشئة الاجتماعية التي تهدف لتكوين المواطن الصالح²، حيث يقول "سامح فوزي" إننا لعلنا نؤمن باننا من غير التربية على المواطنة يتحول المواطنون إلى أفراد لا يمتلكون مصيرهم السياسي وغير قادرين على المشاركة في الحياة الاجتماعية أو في الشأن العام. كما تشير التربية على المواطنة إلى تكوين أفراد فاعلين واثقين من أنفسهم قادرين على الدفاع عن حقوقهم بشجاعة³.

وبهذا المعنى فإن التربية على المواطنة هي التطبيقات التربوية ومختلف التأهيلات المنبثقة من فكر روسو حول تربية الإنسان وتأهيله ليكون مواطناً له حقوق وعليه واجبات.

¹ - سالم علي سالم القحطاني، التربية الوطنية، مفهومها، أهدافها، تدريسها، ص 19-20.

² - جورج نهرا، الإطار المرجعي للتربية على المواطنة، المركز التربوي للبحوث والإنماء، لبنان، ط1، 2021، ص 03.

³ - سامح فوزي، المواطنة، مركز القاهرة للدراسات، حقوق الإنسان، القاهرة، 2007، ص 23.

المبحث الثاني: التربية على المواطنة في الفكر السياسي الغربي

بما أن الفلسفة غير منفصلة بعضها عن بعض كما يقول "جان فال": "فإن الفلسفة الفرنسية موصولة السبب بالفكر الأوربي والعالمي معا، ولا يمكن فهم فيلسوف دون المؤثرين فيه، فكل فيلسوف يؤثر في لاحقيه وكل فيلسوف متأثر بسابقيه"¹، وهذا ما ينطبق على "جون جاك روسو" الذي كان من أهم العوامل المؤثرة في فكره، التراث الفكري للفلسفات السابقة وممثليها فكان أفلاطون وجمهورية أول من إعترف روسو بتأثيرهما في فكره، لاسيما التربوي. وما دعوته لقراءة كتاب الجمهورية إلا دليل قاطع على هذا التأثير بالفكر الأفلاطوني بوجه خاص واليوناني بوجه عام هذا الأخير الذي كان مدرسة الكثير من الفلاسفة قبل وبعد روسو كالقديس أوغسطين في العصور الوسطى. وإذا بحثنا في تاريخ فكرة المواطنة فلا يمكن تجاوز العصور الوسطى. إذ أنها ومن دون شك مرحلة من مراحل الفكر الفلسفي وأثارها تراث فكري، فالعصور الفلسفية تؤثر الواحدة منها في الأخرى بل أن في العصر الواحد يؤثر فيلسوف على آخر.

فكان لـ"مونتيسكيو" أبلغ أثر وارتباط بفكر روسو إذ أن المتصفح للعقد الاجتماعي لاسيما الجزء الثالث منه سيجد آراء مونتيسكيو مجسدة فيه بل يظهر ذلك الارتباط جليا في مسألة فصل السلطات، دون أن ننسى الصديق الذي أصبح فيما بعد ألد أعداء روسو ودافعه للكثير من الآراء والردود والتبريرات للدفاع عن نفسه وآرائه، إنه فولتير الذي لا يمكن تصوره بدون روسو ولا روسو بدونه وربما كانت في عداوتهما خير للإنسانية.

1- أفلاطون:

إذا بحثنا مسألة المواطنة عند الفيلسوف اليوناني أفلاطون (427-347) ق.م. وما يجعل الفرد منتما إلى الوطن، وجدناها في كتبه السياسية الثلاثة: الجمهورية، السياسي والقوانين، إلا أن لب آرائه قائم أساسا في كتاب الجمهورية التي ينتمي إليها الفرد عند

¹ - جان فال، الفلسفة الفرنسية من ديكارت إلى سارتر، تر: الأب مارون خوري، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط3، 1982، ص 265.

مشاركته في تلك الحقوق والواجبات التي يفرضها أفلاطون في مدينته، وأولها حق الفرد في قضاء حاجياته (الأخذ) وواجباته في قضاء حاجيات غيره (العطاء)، من مأكل ومسكن وملبس... إلخ. هذه الحاجيات أو الحاجة هي أساس نشأة الدولة في نظر أفلاطون، حين ينظر إلى الاجتماع ويقرر بأنه ظاهرة طبيعية ناتجة عن عجز الفرد عن الاكتفاء بذاته فيسعى للاجتماع لقضاء تلك الحاجيات في ظل جماعة لا يقل عددها عن أربعة أو خمسة أفراد فما فوق¹.

فيتشكل الوطن الذي يتمتع فيه الفرد بصفة المواطنة حيث يسعى إلى تحقيق السعادة التي لا تكون إلا في كنف العقل وتعاليمه عن طريق العلم الذي يتم بالتعليم والذي لا يكون إلا بالتربية، حين تتوازن مقومات هذا المجتمع بتحقيق العدالة² فأفلاطون قد رمى إلى دولة صالحة ومواطنين صالحين يعرفون مالهم وما عليهم، عندما بين ما يجب أن تكون الدولة والمواطن عليه لتحقيق حياة فاضلة³، بدءاً من ميلاد النشأ أو مواطنو المستقبل، بل تعداه حتى قبل ميلادهم، من هنا تبدأ مواطنة الفرد حين يكون نتاجاً لتزواج خاضع للشروط التي يضعها أفلاطون له، ثم تظهر أكثر حين يؤدي حقه وواجبه في التربية والتعلم الذي يتساوى فيه الجميع وبنفس الفرصة لكي يستطيع كل واحد أن يجعل نفسه جديراً وأهلاً لمهام الإدارة، ويبرهن على طبعه سواء الذكر أو الأنثى فلا فرق بينهما عند أفلاطون⁴.

فكل منهما سواء له نفس الحقوق وعليه نفس الواجبات، وكلاهما مواطن له نفس الحظوظ في صفة المواطنة، إذ يفصل الفرد منذ ولادته عن والديه ويسلم للدولة التي تكفل تربيته وتعليمه⁵، وإذا كان المواطن في نظر أفلاطون حر فهو حر حتى في اكتساب

1- أفلاطون: الجمهورية، تقديم جلالى اليابس، موفم للنشر، الجزائر، د ط، 1990، ص 69-70.

2- محمد فتحي الشنيطي، نماذج من الفلسفة السياسية، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، د ط، 1961، ص 21.

3- جورج سباين، تطور الفكر السياسي، ترجمة حسن جلال العروسي، مراجعة عثمان خليل عثمان، دار المعارف، مصر، ج1، ط4، 1971، ص 57-89.

4- ويل ديورانت، قصة الفلسفة، ترجمة أحمد الشيباني، منشورات المكتبة الأهلية، بيروت، ط2، د ت، ص 103-105.

5-

المعرفة، حين يجب تقديم عناصر التربية والتعليم لذهنه دون إرغام، فبعقول تنمو طليقة حرة وأجساد قوية ستكون المدينة متينة¹، إلا أن بعض المفكرين من عهد أفلاطون كما يرى "جورج سباين" ناقشوا هذا الرأي فذهب بعضهم إلى حد القول بعكس ذلك أن التربية أو التدريب الاجتماعي لا يعدو أن يكون تحكما في حرية الفرد في التعبير عن نفسه، غير أن أفلاطون لم يدخل هذا الاحتمال في حسابه².

وإذا كانت التربية والتعليم دليل على مواطنة الفرد، فإن انتماءه إلى إحدى الطبقات الثلاث للمدينة دليل آخر على هذه المواطنة في اختلاف طبقة العمال المنتجين وطبقة الجند المدافعين عن الدولة وحمائتها وطبقة الحكام المسيرة لها، يرجع أساسا إلى اختلاف الاستعدادات الطبيعية والمؤهلات التي تنتج عنها اختلاف في الحقوق والواجبات. فكما أن هناك حقوق وواجبات يشترك فيها كل المواطنين كالتربية، التعليم، المساواة، الحرية والعمل، الصحة، خدمة الدولة فإن هناك حقوق وواجبات تختلف بين الطبقات، ففيها تتمتع طبقة الصناع بحق الملكية سواء في المال أو الأسرة وواجب خدمة الطبقتين الأخرتين وطاعة الحكام، فإن الحراس سواء الجنود أو الحكام الفلاسفة تطبق عليهم المشاعية في المال والأسرة بتحريم الملكية الخاصة وإلغاء الزواج الفردي والأبناء الخاصين، بالإضافة إلى اختلافهم في الأعمال³.

لكن يبقى أن كل المواطنين مهما كانت طبقتهم يتمتعون بحقوق ويؤدون واجبات من أجل التكامل، الكل في مكانه يؤدي ما عليه ويأخذ ماله، وهذه هي العدالة الأفلاطونية⁴، التي تكفل للمواطن حقوقه وواجباته ؛ أي يكفل دليل مواطنة الفرد، ويتحقق

¹ عبد الرحمان بدوي، أفلاطون، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط4، 1964، ص 223.

² ويل ديورانت، قصة الفلسفة، ص 92.

³ جان جاك شوفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، ص 45.

⁴ جورج سباين، تطور الفكر الفلسفي، ج1، ص 68.

العدالة تصل المدينة وبالتالي الفرد إلى بلوغ السعادة، والذي من حقه بعد وفاته قبر جدير به¹.

وفيما يتمتع أفراد الطبقات الثلاث وما تكفله لهم من حقوق وواجبات بصفة المواطنة، فإن أفلاطون يحرم منها أولئك الأطفال الذين بهم علة، بل يجب التخلص منهم كواجب للدولة²، ليس هذا فقط بل يرفض مواطنة الشعراء من أمثال "هوميروس" ويطردهم من مدينته حفاظاً على مواطني الغد ومدينته التي تبدو ممكنة بدون رق إذ لم يخصص لهم عملاً كحق لهم يؤدونه كواجب، ومن المحتمل أنه عد الرق أمر قليل الأهمية فالمواطنة صفة تصدق على أفراد الطبقات الثلاث دون غيرهم.

وقد بدا لأفلاطون أن ما ذهب إليه في محاورة "الجمهورية" بعيد عن الواقع لذلك لجأ إلى محاولة تقنين هذه الأفكار، فكتب محاورتي "السياسي" عام (365) ق . م و"القوانين" آخر ما كتب في حياته³، ليتراجع فيهما عن فكرة إستبعاد القانون من الجمهورية فيقول: "... لا تدعوا... أية مدينة... تخضع لسادة من البشر. بل للقوانين". فالنّاس بدون القوانين لا يختلفون البتة عن أشد الحيوانات الوحشية⁴ ولا بد من طاعة القوانين لأنه الحكم بين الناس، وبينهم والحاكم، أو السياسي في محاورة "السياسي" التي بحث فيها عن تعريف صحيح للرجل السياسي الذي إستحق أن يحكم بعلمه الصحيح⁵، والذي لا يوجد بمفرده بل داخل جماعة لها عاداتها وقيمها وأعرافها وهي جماعة الأفراد التي تخضع للقوانين التي يسنها السياسي بعلمه فينظمون سلوكهم على أساسها، وهؤلاء الأفراد لهم من الحقوق والواجبات ما يثبت إنتماهم للمدينة، كالملكية الخاصة والأسرة الخاصة، ففي هذه المحاورة

¹ جورج صباين، تطور الفكر الفلسفي، ج1، ص 68.

² جان جاك شوفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، ص 47.

³ عبد الرحمان بدوي، أفلاطون، ص 22-31.

⁴ كامل محمد عويضة، الفلسفة السياسية، مراجعة محمد رجب البيومي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1995، ص 43-68.

⁵ جان جاك شوفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، ص 51.

يلغي أفلاطون الشيعوية التي لن تصل إليها الطبيعة البشرية لسموها، غير أنه لا يزال يحتفظ برأيه حول المساواة بين الرجل والمرأة في التعليم، وفي أداء الواجبات العسكرية والمدنية¹، وإذا كانت المواطنة في محاوره "السياسي" بهذا الشكل فإنها في محاوره "القوانين" صفة الأحرار الذين يمارسون السياسة ويشاركون في الحكم، مما يشغلهم عن الأعمال الأخرى التي يتكونها للأجانب والعبيد من صناعة وزراعة وتجارة، فالدولة تضم المواطنين أو اليونان والأجانب غير اليونانيين والعبيد وهم جميعا يخضعون لطاعة القوانين².

وهنا نستطيع القول بأنه إذا كانت المواطنة في "الجمهورية" صفة أفراد الطبقات الثلاث، وفي "السياسي" صفة الخاضعين للقانون الذي يسنه الحاكم فتحدد حقوقهم وواجباتهم فإنها في "القوانين" صفة الأحرار الذين يمارسون السياسة، وعلى الرغم من صفة المساواة التي يضيفها أفلاطون على المواطنين في حق التعليم، إلا أن تشكل المواطنة بعد ذلك في إطار النظام السياسي والاجتماعي في المدينة الجمهورية يقتضي تصور متفاوت يمتثل إلى الشكل العبودي الذي قامت عليه المدن اليونانية القديمة غير أن الجمهورية كانت بمثابة ثورة قامت على نظام جديد لا يمتثل للفروق الاجتماعية من ثروة وأصل وشرف، وإنما كان اعتبار التفاوت الأول بين الطبقات هو المؤهل العقلي.

2- القديس أوغسطين:

يعد القديس أوغسطين (354-430م) واحدا من أعلام الكنيسة في القرن الخامس الميلادي، قضى حياته في نشر المسيحية والدفاع عنها، ولعل أقوم ما جادت به قريحته في هذا السبيل كتابه الخالد "مدينة الله" (la cité de dieu) عام 427 م كرد على الوثنيين يضم 22 كتابا³ ومن خلاله سنحاول معرفة المواطنة عند أوغسطين، هذا الكتاب الذي

¹ - كامل محمد عويضة، الفلسفة السياسية، ص 45.

² - جان جاك شوفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، ص 58.

³ -

يتحدث فيه عن فكرة أساسية وهي الموازنة بين المدينة السماوية أو مدينة الله والمدينة الأرضية اللتان تختلفان عن بعضهما اختلافا جذريا.

ففي حين أن الأولى هي مملكة الله الخيرة فإن الثانية هي مملكة الشيطان الشريرة، وفي حين أن الأولى تضم المواطنين المشتركين في عاطفة حب الله، فإن الثانية مواطنيها مشتركين في حب ذواتهم. هؤلاء المواطنون الذين يعرفهم في الكتاب التاسع عشر على أنهم جماعة من الناس ألقت بينهم محبتهم المشتركة لموضوع ما وهذا الاشتراك في المحبة هو الذي يشكل المدينة¹، وما يجعل الفرد منتما إليها أوله حق المواطنة فيها هو مشاركته في هذه العاطفة، إلا أن أوغسطين يقر بوجود محبتين وبالتالي وجود مدينتين، وعليه وجود نوعين من المواطنين: مواطنو مدينة الله، ومواطنو المدينة الأرضية وإن الانتماء إلى أحد المدينتين يكون بمحض الإرادة وعلى حسب نوع عاطفة الحب، وإذا ما رجعنا إلى معناها عند أوغسطين وجدنا أنه يقصد حب الله الإيمان بالله وبدينه المسيحية، وحب الذات الكفرية وبدينه، وبالتالي فالمواطنة في مدينة الله لا تكون إلا للمسيحيين المؤمنين المشتركين فيها في محبة الله والخضوع له ولرئيسها المسيح، مؤمنين عادلين محبين للحقيقة يتمتعون فيها بالعدالة الإلهية التي تقتضي لهم حقوقا وواجبات، ولا سيما عند الاختلاط بالمدينة الأرضية أو مدينة الشيطان، مواطن الكفار الذين اشتركوا في عاطفة حب الذات وإحتقار الله وهذا ما يجعل الفرد منتما إليها ومواطنته فيها تكون على هذا الأساس مساندين للظلم وفي خلاف مع أهل مدينة الله²، ذلك أن المدينتين غير منفصلتين عن بعضهما بل أنهما في تمازج واختلاط في هذه الحياة، إلا أن هذا الامتزاج والاختلاط ظاهري فقط فبرغم من أنهما يستعملان نفس الخيرات الدنيوية فليس لهما نفس الإيمان أو الحب³، وبالإضافة إلى العدالة الإلهية فهناك القانون الديني لا بد لهم من احترامه والخضوع له سواء كان القانون الطبيعي

¹ - مرجع سابق، ص 151.

² - يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط، دار المعارف، بمصر، ط3، دت، ص 53.

³ - علي زيعور، أوغسطينوس، مع مقدمات في العقيدة والفلسفة الوسطية، دار إقرأ، بيروت، لبنان، ط1، 1983، ص225.

الأبدي الذي أوجده الله الذي يظم نوعا من الزواجر والروادع الأمرية التي لا بد من الإلتزام بها كواجبات، أو كان القانون الوضعي الزمني الذي يحمي تلك الحقوق والواجبات من المفسدين والعابثين، فيقوم على خدمة المواطنين وتأمين النظام¹، وعليهم الخضوع لهذه القوانين التي تؤمن لهم الإدارة الجيدة لكل ما تتطلبه هذه الحياة الفانية ويجب عليهم كمسيحيين أن يكونوا مواطنين أفضل من الآخرين حبا بالله لا حبا بالوطن، غير أن هذه الحقوق التي يتمتعون بها ما هي إلا مجرد وسائل يعودون بها إلى غايتهم الحقيقية، وتلك الواجبات التي يؤديونها ليست إلا من أجل الله وطاعة له متبعين مقولة المسيح: " أعطي ما لقيصر لقيصر وما لله لله " . فمن واجب المواطن طاعة السيد الديوي من أجل ارضاء السيد الأبدي إيماناً بأنه هو من سلطه سواء كان صالحاً أو طالحاً إلا أن هذا لا يعني أن يطيع المواطنون قيصر في كل شيء ولكل شيء، إذ أن هناك حدود لهذه الطاعة حين يتعداه إلى واجباته نحو الله، عندئذ من واجبه ومن حقه الرفض لكن دون ثورة أو تمرد².

ذلك أن العمل على سيادة السلم والنظام والتوازن وطاعة الأوامر واجب حتى وإن كانت ضد رغبته، ولا يجوز قط أن يعصي الأوامر وإلا وقع في خطيئة التمرد، وإذا كان السلم من واجب المواطن فإنه من حقه كذلك كحقه في الدفاع عن نفسه وحقه في الملكية، فأوغسطين يرفض الشيعوية ويعتبرها ثورة على القانون والنظام والحكام، وعلى المدينة وكل من يقول بها يستحق العقاب، فمن الشرعي أن تكون للفرد ملكية خاصة لأن المشكلة ليس في التملك بل في طريقتها وفي استخدامها، فإذا كان الإستخدام سيئاً ذهب حق الملكية والعكس صحيح، فمن الجائز التملك لكن بطرق مشروعة كالشراء والبيع والتبادل والهبة والإرث، أما الحياة لأملاك الغير فهي مرفوضة³. وهذا ما يجعلنا نلاحظ أن آراء القديس أوغسطين

¹ - علي زيعور، أوغسطينوس، ص 229-232.

² - جان جاك شوفالبيه، تاريخ الفكر السياسي، ص 152-155.

³ - علي زيعور، أوغسطينوس، ص 223-237.

حول المواطن وما له وما عليه من واجبات وحقوق، آراء دينية مستقاة من الدين المسيحي من أجل السعي لخلاص النفس، وهذا ليس غريبا على قديس جعل من التربية الدينية واجب كل مواطن تجاه كل أبنائه.

لنصل إلى أن المواطنة عنده نوعان، مواطنة في مدينة الله ومواطنة في المدينة الأرضية الأولى يتمتع بها المسيحي المؤمن والثانية للكفار غير المسيحيين والتي تتوقف على الإشتراك في عاطفة الحب التي تجعل الفرد يدخل في علاقة انتماء اجتماعية مع سائر من يشترك فيها، ليصبح مواطنا تصدق عليه صفة المواطنة.

3- مونتيسكيو:

مونتيسكيو (1689-1755) م هذا المهندس الاجتماعي كما يسميه البعض، الذي عد من بين أهم الفلاسفة السياسيين الفرنسيين في القرن الثامن عشر. أخذ على عاتقه العمل على دراسة تجريبية واسعة للمجتمع والحكم من خلال كتابه "الرسائل الفارسية" عام 1721 م

الذي رأى فيه أن أفضل حكومة هي تلك التي تقود المواطنين إلى الطريق المناسب لتصرفاتهم وكتابه "روح القوانين" عام 1748م، حيث أستغرق في تأليفه سبعة عشرة عاما¹ محاولا فيه تفسير أصل الدولة وطبيعة القوانين. فكان البشر واجتماعاتهم أول ما تفحص ليصل إلى القول بأن المجتمعات كائنات تخضع لنواميس وانتماءاتهم لها تستلزم توافق هذه النواميس أو القوانين وطبيعتهم²، فالمواطن عند مونتيسكيو هو الذي يحدد قيمة القوانين وصلاحياتها فله من الحرية ما يمكنه من تغيير القوانين وتكييفها مع متطلباته والتي تعتبر حق من حقوقه. وإذا كان مونتيسكيو ينظر إلى الدولة على أنها تنظيم جماعي أو جهاز

¹ جورج سباين، تطور الفكر السياسي، ترجمة علي إبراهيم السيد، مراجعة راشد البراري، دار المعارف بمصر، ج4، د ط، 1971، ص 746-749.

² رولان موسييه وآخرون، تاريخ الحضارات العام للقرن الثامن عشر، ترجمة يوسف أسعد داغر وفريديم داغر، منشورات عويدات، بيروت، ط2، 1987، ص 70.

يسعى لغاية وكل مبني حسب قوانين، فإنه ينظر إلى المواطن على أنه الأمر الناهي في التبدلات التي يمر بها، فيتصرف بها ويصيغها ويطورها على هواه، بل يمجده حين يرى فيه قيمة مطلقة من منظار الحقوق التي يجعلها نوعان حقوق طبيعية تحقق له بوصفه إنسان أيا كان موطنه وأيا كان الزمن الذي يعيش فيه وهي التي خلقت معه فمن حقه أن يعيش وألا تعاق تصرفاته، وحقوق سياسية والتي يولي لها الأهمية الكبرى كالحرية السياسية التي يميزها عن غيرها من الحريات والتي تنطوي على معنيين، حيث أنها في المعنى الأول تختلف من شعب إلى آخر ومن نظام سياسي إلى آخر.

وإذا انفصلت السلطات الثلاث التشريعية والتنفيذية والقضائية عن بعضها ومارست كل واحدة منها الوظيفة المنوطة بها، تتحقق الحرية السياسية للمواطن. أو المعنى الثاني للحرية وتتحقق معها راحة النفس التي يأملها كل واحد. وإذا كان للمواطن من الحقوق ما ترفعه فوق القانون وتجعل منها ومن قيمتها وصلاحتها وقفا على موافقتها أو مخالفتها لحقوق المواطن، فإن عليه من الواجبات تجاه وطنه ما يجعله يضحي بنفسه في سبيلها، كما أن المواطنة عند مونتيسكيو أساس تلك العلاقة التي يقيمها الفرد بالجماعة فحياته ومصيره واتجاهه الفكري تابعون لهذه الجماعة، بل تجعله يشعر في نفسه بشيء من الحياة المشتركة والروح العامة وبذلك ينمو الحس المدني حسب مونتيسكيو، وإن من مواطنة الفرد في دولة دون أخرى تعني أن له استعدادات فكرية خلقت فيه تختلف من منطقة إلى أخرى، وعلى كل القوانين والمؤسسات أن تتوافق وهذه الاستعدادات¹، فلكل مجتمع طابعا خاصا وأسلوبا للتفكير وروحا تكونت خلال العصور هي أساس كل سلطة .

وما نظريته الشهيرة حول فصل السلطات إلا دليل على سعيه لحماية المواطن والدفاع عن حقوقه لاسيما السياسية منها، فجعل كل سلطة متميزة عن الأخرى، وقام بتوزيعها كحد واق من الاستبداد السياسي كضمانة للحريات الفردية وعدم وقوع الجور السياسي مبررا

¹ - بيرنار غروتر زين، فلسفة الثورة الفرنسية، ترجمة عيسى عصفور، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، ط1، 1982، ص 42-56.

ذلك بقوله أن الفرد الذي يتمتع بسلطة يميل إلى التعسف، وإذا حدث ذلك فلا يوقف سلطة إلا مثلها، ولا سبيل إلى ذلك لو وضعنا السلطات كلها في يد واحدة¹. فكانت لأراءه أبلغ الآثار إذ سجل في إعلان حقوق الإنسان الفرنسي الصادر في عام 1789م ما نصته المادة 16 بأن كل جماعة سياسية لا تضمن حقوق الأفراد ولا تفصل بين السلطات لا دستور لها²، فالمواطنة عند مونتيسكيو استعداد خاضع لظروف يحددها المناخ والتربة ومساحة الإقليم... الخ. تجعل للفرد من الحرية ما يمكنه من تغيير القوانين وتكييفها مع متطلباته، هذه الحرية التي يفصل من أجلها السلطات بعضها عن بعض. ومع ذلك لقي ردودا عنيفة من قبل أنصار الكنيسة وقضى السنوات الأخيرة من عمره في الرد على منتقدي كتابه "روح الشرائع".

4 - فولتير

لقد تساءل "بول هازار" في كتابه "الفكر الأوروبي في القرن الثامن عشر" قائلا: "لو لم يكن فولتير قد وجد، هل كان القرن الثامن عشر سيكون له ذات المميز الذي كان؟" «فهو الذي يسعى إلى الثورة على ما كان سائدا في فرنسا، وإلى مساندة ذلك المواطن المظلوم حسب رأيه³.

وإذا كان مونتيسكيو كما رأينا يولي أهمية بالغة لمسألة المواطنة، فإن فولتير (1694-1778م) على العكس من ذلك حين آمن بأنه إنسان أولا ومن ثم فرنسي، فأعتبر غير وطني، وقضى الملك بأن لا تطأ أبدا قدماء ثرى فرنسا ثانية. وعلاوة على ذلك نجده غير مبالي بالقوميات أو الانتماءات، فقلبه ينبض بأية محبة قومية إذ يقول: "بأن المحبة القومية تعني بصورة عامة أن يكره المرء كل وطن ما عدا موطنه". غير أن فولتير

¹ - يحيى أحمد الكعكي، مقدمة في علم السياسية، ص 38.

² - محمد كامل ليلة، النظم السياسية الدولية والحكومة، دار الفكر العربي، د م، د ط، 1967، 1968م، ص 560.

³ - بول هازار، الفكر الأوروبي في القرن الثامن عشر من مونتيسكيو إلى لسنج، ترجمة غلاب محمد، مراجعة إبراهيم بيومي مذكور، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، ج2، د ط، د ت، ص 152.

يرفض ذلك، ويرى بأنه إذا تمنى الإنسان الخير لموطنه فليس على حساب مواطن أخرى، فعندئذ يكون وطنيا عاقلا ومواطنا عالميا في الوقت نفسه. وعدم اهتمام فولتير بالمواطنة أو بالانتماء هو عدم اهتمامه بالانتماء إلى وطن محدد، إلا أنه في الحقيقة أولى أهمية واضحة لهذه المسألة، حين دعا إلى مواطنة عالمية ومساواة بين الجميع لاسيما المساواة في الذهنية الوطنية بين الجنسين، فأولئك الذين يقولون بأن جميع الناس متساوون ينطقون بأعظم حقيقة، ولاسيما التساوي في حق الحرية والملكية وحماية القانون، خاصة الحق في حرية الرأي حين يقول: "إني لا أوافقك على أية كلمة مما تقوله، لكنني سأدافع حتى آخر قطرة من دمي على حقك في أن تقول"¹. وإذا بحثنا عن فائدة المواطنة عنده وجدناها في رسالة بعث بها إلى روسو يقول له فيها: "بأن الإنسان بطبيعته حيوان كاسر، وأن انتماءه إلى المجتمع المتمدن يعني تصعيد هذا الحيوان والتلطيف من وحشيته"، وتقدم فكره .

إن مواطنة فولتير العالمية هي دعوة للتآخي والمساواة والحرية، تلك هي مبادئ الثورة الفرنسية عام 1789م، والتي لا طالما حلم بها فولتير، فهو الذي قال "إن كل شيء أراه يبداً كأنه يبذر بذور الثورة تلك الثورة التي ستنشب حتما ذات يوم والتي لن يمهلني الأجل للاغتباط بمشاهدتها... إن الشباب لمحظوظ، فهم سيشاهدون الأشياء الجميلة"²، وقد أفنى فولتير حياته في الدعوة لهذه المبادئ فهو القائل: "يولد البشر متساوون في الحقوق ويحيون كذلك"³. لاسيما حرية المناقشة والرأي، ذلك الحق الذي كان مكبوت في فرنسا تحت ضغط الرقابة ولعل هجومه على اضطهاد المسيحية آنذاك لدليل قاطع على أهمية الحرية وحرية العلماء خصوصا، فلكل أمرئ حق الكلام علنا ونشر آراءه⁴ بل يذهب إلى أن التاريخ كله ما هو إلا بهدف تحرير البشر جسديا وخلقيا، وسلاح الحفاظ على الحرية هو العقل . كما

¹ - فولتير، رسالة في التسامح، ت هنريت عبودي، دار بترا للنشر والتوزيع، سوريا، دمشق، ط1، 2009، ص 110.

² - ويل ديورانت، قصة الفلسفة، ص 372-437.

³ - جان فال، الفلسفة الفرنسية من دكارت إلى سارتر، ص 51.

⁴ - جورج سباين، تطور الفكر السياسي، ج4، ص 159.

أن المواطنة عند فولتير تقتضي أن يقرر المواطن ما هو خير له، والثورة والصراع على السلطة إن كانت طاغية طال الزمن أو قصر، وكذا حرية العبادة الدينية أو حرية العقيدة¹. فهو الذي يقر بعدم الإساءة إلى أحد بسبب دينه وأن كل الذين يؤمنون بالله إخوة². لنصل إلى أن المواطنة عند فولتير هي صفة المواطنين الذين لا تحددهم حدود ولا عقيدة أو تحيز أو قومية محددة، بل الذين تجمعهم صفة الأخوة يعيشون في كنف المساواة والحرية الذين تنطبق عليهم صفة العالمية، لهم الحق في المشاركة السياسية والثورة على الحاكم إن كان ظالماً، إلا أن روسو يرفض وينتقد هذه الفكرة - فكرة المواطنة العالمية - حيث يقول: "ينبغي علينا أن نفكر في هؤلاء المواطنين العالميين المزعومين الذين في سبيل تبرير حبهم لأوطانهم بحبهم للجنس البشري يعملون من حبهم للعالم أجمع مفخرة من أجل التمتع بميزة عدم حب أي أحد."³

¹ - عثمان نوية، المفكرون من سقراط إلى سارتر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د ط، 1970، ص 249-252.

² - فولتير، الرسائل الفلسفية، ترجمة عادل زعيتير، دار المعارف بمصر، د ط، 1959، ص 27.

³ - جورج سباين، تاريخ الفكر السياسي، ج4، ص 786.

المبحث الثالث: التربية على المواطنة في الفكر السياسي العربي الإسلامي

كان التفاعل مع مصطلح المواطنة في الفكر العربي يظهر في كتابات جملة من المفكرين العرب والمسلمين الذين حاولوا القيام بعملية تجديد في الفكر السياسي العربي من أجل ترسيخ فهم المواطنة والبحث عنها في العمق العربي والإسلامي نظريا وتطبيقيا وبداية من العقدين الأخيرين من القرن الماضي حاول المفكرين في العالم العربي والإسلامي المزوجة بين ما جاء في الفكر الغربي في موضوع المواطنة والتراث الثقافي والديني للأمة لبلورة مفهوم المواطنة يلبي حاجة المجتمعات العربية والإسلامية في التطور والرفي من خلال تحقيق ديناميكية جديدة للفكر السياسي في العالم العربي والإسلامي تمكن من تغيير الواقع المتردي في كافة المجالات ومنهم رفاع الطهطاوي، خير الدين التونسي ومحمد عابد الجابري ."

دون أن نتخطى فكر فلاسفة العصر الوسيط الذين تفاعلوا مع الفلسفة اليونانية ورسوموا معالم الفكر الفلسفي السياسي العربي الإسلامي خاصة المعلم الثاني "أبو نصر الفارابي" من خلال مدينته الفاضلة.

1- أبو نصر الفارابي:

يعد الفارابي (870-950م) من بين أبرز فلاسفة الذين أنجبتهم الدولة الإسلامية كان هدفه الأسمى والغاية من الاجتماع عنده ذو صبغة أخلاقية، حين بحث عن الفضيلة وسعادة الأفراد والجماعات، هذه السعادة التي يعتقد أنها لا تتم إلا داخل المدينة الفاضلة¹، التي كتب عنها في القسم الثاني من كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة، وبتعبير آخر يمكن صياغته كالتالي آراء مواطنوا المدينة الفاضلة، لكن ما الذي يجعلهم مواطنون فيها؟ أو كيف استحقوا هذه المواطنة فيها؟.

¹ - إسماعيل زروخي، الدولة في الفكر العربي الحديث، دار الفجر للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1999، ص 61-62.

يرى الفارابي أن الإنسان خارج إطار المجتمع لا يستطيع أن يحافظ على عنصرها، ولا أن يرتقي ويتطور إلا أنه يفضل المدينة عليه حين يقول: "فالخير الأفضل والكمال الأقصى إنما ينال أولاً بالمدينة لا بالاجتماع الذي هو أنقص منها"¹. "هذه المدينة التي يكون انتماء الفرد فيها أولاً وقبل كل شيء على أساس الحاجة الطبيعية للاجتماع، فالإنسان مدني بطبعه، إذ يقول في كتابه "السياسة المدنية": "والإنسان من الأنواع التي لا يمكن أن يتم لها الضروري من أمرها، ولا تنال الأفضل من أحوالها إلا باجتماع الجماعات"²، وباجتماعه يصبح فرداً من أفراد المدينة ومواطناً فيها، ليس هذا فقط، بل إن انتماءه يستوجب تعاونه مع أعضاء المدينة كتعاون أعضاء البدن حيث يؤدي كل عمله من أجل التكامل وبلوغ السعادة، بالإضافة إلى ممارسته لحقوقه وما عليه من واجبات، إلا أن الفارابي لا يترك مواطنته هكذا بل يقسمهم في كتابه "الحروف" إلى طبقات ثلاث على حسب المعرفة والصناعة، فيجعل الطبقة الأولى أو المرتبة الأولى لأولئك الحكام المفكرين الذين يعلمون بالبصر والبصيرة، وبالعقل والقلب، تليها طبقة أتباع الفلاسفة ومساعدتهم، يعرفون بالعقل ما تقوله الطبقة الأولى، وآخرهم طبقة السواد الأعظم من الناس والعامّة، معرفتهم ظنية لا عقلية.

ومن العدل عند الفارابي أن يحافظ على هذا التمايز بين الطبقات بحيث لا تحتل طبقة مكان الأخرى³، وإن مواطنة الفرد تعني بالضرورة انتماءه إلى أحد الطبقات، إلا أن هذا الانتماء الطبيعي ليس ثابتاً كما هو الحال عند أفلاطون بل أن الفرد قادر على الرقي إلى رتبة أعلى عن طريق التربية والتعليم الذي يعتبره واجب وحق للمواطن إلى جانب حقوق وواجبات أخرى كالعدل في قسمة الخيرات المشتركة لأهل المدينة، فإن لكل واحد منهم

¹ - الفارابي، المدينة الفاضلة ومختارات من كتاب الملة، موفم للنشر، الجزائر، ط2، 1990، ص 94.

² - أبو نصر الفارابي، السياسة المدنية الملقب بمبادئ الموجودات، تحقيق فوزي متري النجار، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، ط1، 1964، ص 69.

³ - أبو اليزيد علي المتيت، النظم السياسية والحريات العامة، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ط4، 1984، ص

الحق في قسط من هذه الخيرات بالتساوي) فالفارابي يرفض الشيوعية في المال والنساء والأبناء، كيف لا وذلك يتنافى مع عقله ودينه) فهو الذي سعى إلى مواطنة نموذجية على ضوء الدين والفلسفة حين حلم بمدينة الإنسان الراقي الذي يتمتع بحقوقه ويؤدي واجباته من تعاون وعمل لاسيما الخضوع للحاكم أو النبي الفيلسوف مصدر النواميس والشرائع التي يخضعون لها) ذلك أن الفرد في نظر الفارابي يصبح مواطن حين يضع نفسه تحت إرادة فرد يمثل الحكومة هو الحاكم الفيلسوف، وكذا الإيمان بعقيدة واحدة دون أن يشترط عقيدة بعينها ليس هذا فقط بل أن الفارابي يقر بحق الإنسان في المواطنة حين يقول: "من حق الناس أن يكون لهم مدينة يمكنهم أن يجتمعوا فيها" (فالمواطنة عنده حق من الحقوق الطبيعية للإنسان وضرورة لقوامه ووجوده.

2- رفاة رافع الطهطاوى :

تعتبر كتابات رفاة رافع الطهطاوى (1801-1873م) من البدايات الأولى لدخول مفهوم المواطنة في الفكر السياسي في العالم العربي بعد البعثة التي شارك فيها نحو فرنسا للاستفادة من العلوم والآداب والفنون التي كانت محل إعجاب من طرف كل من زار الدول الأوروبية، حيث جاء كتابيه "المرشد الأمين للبنين والبنات" و"منهج الألباب المصرية في مناهج الآداب العصرية" ثمرة لتلك الرحلة، فكان "تخليص الإبريز إلى رحلة باريز" الذي صدر في القاهرة سنة 1834م، تقديم لمجتمع باريس للمصريين من خلال مؤسساته السياسية وأخلاقه وأعرافه، وأدبه وثقافته، غير أن أثر مبادئ حقوق الإنسان والمواطن كان لها القسم الأعظم في الكتاب¹

حاول أن يستفيد من التراث الإسلامي، القرآن والسنة وأفعال الصحابة والخلفاء المسلمين، وما لاحظته من رقي وتطور في المعاملات العصرية كما وصفها في الدول الأوروبية التي زارها خاصة فرنسا، فجاء كتابه متضمنا قيم حب الوطن والانتماء والإخاء

¹ - أنور عبد الملك، الفكر العربي في معرفة النهضة، ت بدر الدين عرودكي، دار الآداب، ط3، 1981، ص 86.

والتسامح ونبذ التعصب واحترام الحريات العامة والخاصة، والدعوة إلى التمدن من خلال جملة من المظاهر وربطه للتمدن بحب الأوطان فكل مملكة تأخذ حظها الأوفر من نير التمدن مدة قرون وأزمان بحمية أهلها ومغالاتهم في حب الأوطان، فقد شبه بعضهم حُبَّ الأوطان الحقيقي والغيرة عليها بحرارة جديدة محلية متمكنة من الأبدان الأهلية متى حلت بيدن الإنسان غلبت على الحرارة الغريزية، فلذلك إذا ظهرت الحمية الوطنية في أبناء الديار المصرية وولعت بمنافع التمدنية فلا جزم أن تذكُو نارها وتغلب على القوة الأولية، فيحصل لهذا الوطن من التمدن الحقيقي -المعنوي والمادي - كمالُ الأمنية، فيقده زناد الكد والكبح والنهض بالحركة والنقلة والإقدام على ركوب الأخطار تتال الأوطان بلوغ الأوطار¹.

استطاع الطهطاوي أن يطرح مفهوم الوطنية والمواطنة والعلاقة بينهما في المجتمع المصري مركزا على الحقوق المدنية هذا المفهوم الذي لم يكن معروفا في المجتمعات العربية سابقا، وربطه بالحقوق الشخصية للأفراد، وعلاقة ذلك بالحقوق العامة وبسَطُ الكلام على عموم الرعية أن يُقال : إن لهم حقوقا في المملكة، تُسمى : بالحقوق المدنية؛ يعني حقوق أهالي المملكة الواحدة بعضهم على بعض، وتُسمى : بالحقوق الخصوصية الشخصية في مقابلة الحقوق العمومية، وهي عبارة عن الأحكام التي تدور عليها المعاملات في الحكومة، وهذه الحقوق في كتب الفقه عبارة عن المعاملات والأنكحة والفرائض، والوصايا والحدود والجنايات، والدعاوى والبيانات، والأفضية، فالحقوق المدنية المذكورة هي حقوق أهل العمران بعضهم على بعض ؛ لحفظ أملاكهم وأموالهم ومنافعهم ونفوسهم وأعراضهم وما لهم وما عليهم محافظة ومُدَافَعَة².

¹ - رفاة رافع الطهطاوي، مناهج الألباب المصرية في مباحج اللآداب العصرية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2014، ص 21.

² - المرجع نفسه، ص 306.

فكانت دعوة الطهطاوي لتحقيق العدالة بين أفراد الوطن الواحد مدعاة لحب الأوطان، فكلمًا تمتع أفراد الوطن الواحد بالعدالة والمساواة والطمأنينة كان نتيجة ذلك الإنتاج والإبداع، فالمواطنة يرى فيها "رفاعة الطهطاوي" مخرجًا مناسبًا للأمة لتحقيق الرقي والتقدم.

3 - خير الدين التونسي (1889-1920م)

فقد تكلفت زيارته للدول الأوروبية بتأليفه لكتاب ضخ وضع فيه كل ما استطاع أن يسجله من أسباب لتطور الدول الأوروبية، خاصة في جوانب المعاملات والإدارة، داعيًا إلى ضرورة تبني طرق وأساليب التمدن التي وصلها الغرب والاستفادة منها، وعدم رفض كل ما يأتي من الغرب إذا كان يخالف شريعتنا، ويذكر في مقدمة كتابة الأهداف التي يسعى إليها من خلال هذا المؤلف إغراء ذوي الغيرة والحزم من رجال السياسة والعلم بالتماس ما يمكنهم من الوسائل الموصلة إلى حسن حال الأمة الإسلامية، وتنمية أسباب تمدنها... وتحذير ذوي الغفلات من عوام المسلمين عن تماديهم في الإعراض عما يحمد من سيرة الغير الموافقة لشرعنا... فإن الأمر إذا كان صادرًا عن غيرنا وكان صوابًا موافقًا للأدلة لاسيما إذا كنا عليه وأخذ من أيدينا فلا وجه لإنكاره"¹.

لقد كانت دعوة "خير الدين" صريحة للتجديد في الشريعة الإسلامية بما يتوافق مع العصر الحديث ولا نبقى حبيسي النصوص التقليدية، فالتجديد خاصة فيما يتعلق بالمصالح العامة للمواطنين وتمكينهم من الحصول على حقوقهم ببسر وسهولة من خلال تطوير عمل الإدارة وأعتبر أن التقدم الحاصل في أوروبا سببه نجاحات حركة التنوير والعلم التي يقود إليها النظام السياسي القائم على مبادئ العدالة والحرية الشخصية والمدنية.²

كما أشار إلى ضرورة الانتباه أن الأمة الإسلامية تضم العديد من الأجناس المختلفة لغويا ودينيا وثقافيا، لعل خير الدين التونسي أول من دعا إلى المواطنة الثقافية في العالم العربي،

¹ - خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، مطبعة الدولة، تونس، 1284هـ، ص 5-6.

² - ز. أ. لبغين، الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث في لبنان وسوريا ومصر، ترجمة: بشير السباعي، دار ابن خلدون، بيروت، 1978، ص 64.

واحترام التنوع الثقافي من خلال توفير قدرًا كافيًا من فهم الآخر وتنمية الشعور بالانتماء بين أفراد الوطن الواحد وتطوير آليات جديدة كما في أوروبا تضمن الحقوق المدنية والسياسية للمواطنين، تكون الحرية الشخصية مجسدة في حرية التصرف في الذات والكسب مع الشعور بالأمن وعدم الخوف من تبعات تصرفاته الحرية الشخصية، هو إطلاق تصرف الإنسان في ذاته وكسبه مع أمنه على نفسه وعرضه وماله ومساواته لأبناء جنسه لدى الحكم بحيث لا يخشى على نفسه ولا ماله.

4- محمد عابد الجابري (1936-2010م)

والذي يعد من أبرز المفكرين العرب في العصر المعاصر، له مؤلفات كثيرة تناولت جوانب عدة من بنية العقل العربي إلى نقده ابن رشد وفلسفته وحقوق الإنسان والديمقراطية، ودعوته ليس إلى القطيعة مع التراث العربي الإسلامي، وإنما إلى إعادة فهم التراث العربي الإسلامي بعيدًا عن الذاتية، وأن لا يكون التراث سيديًا على الفكر العربي يوجهه بعيدًا عن الواقع الذي يعيشه، بل يكون نبراسًا له، فدعوته إلى قراءة جديدة للتراث العربي الإسلامي بعيدًا عن التعصب لهذا التراث، وهنا يقترح عمليتين أساسيتين للوصول إلى النتيجة المرغوب فيها، وهما الموضوعية والعقلانية، وبهاتين العمليتين معا يصبح التراث موضوعًا لنا بدل أن يبقى موضوعًا فينا، يقدم نفسه ذاتًا لنا وبعبارة أخرى أننا بذلك نتحرر من سلطته علينا ونمارس سلطتنا عليه¹.

فالجابري يرى في مفهوم المواطنة (la citoyeté) ومواطن (citoyen) باللغة الفرنسية و (Citizenchip) و (Citizen) باللغة الانجليزية، لا تؤدي المقصود باللغة العربية، فالمواطنة لا تحيلنا إلى الوطن كما في اللغة العربية، بينما في اللغة الفرنسية والانجليزية تحيل الكلمتان إلى المدينة، فيكون المعنى بالإضافة إلى المشاركة في الوطن التمتع

¹ محمد عابد الجابري، التراث والحداثة، مركز الدراسات الوحدة العربية، بيروت، 1991، ص 47.

بالحقوق التي يمتلكها الشخص للمشاركة في تدبير شؤون المدينة، تمييزاً له عن العبد وأحد أفراد الرعية¹.

إن مفهوم المواطن في العالم العربي غائب تماماً بمعناه السياسي من وجهة نظر الجابري، لأن المواطن هو الشخص الذي لا يدين بالولاء لا للقبيلة ولا للطائفة ولا حتى للأسرة ولا لحكم على رأسه فرد، عادل أو غير عادل، ولا لدولة يكون بعض القائمين بها يستمدون سلطتهم من مصدر غير مصدر إرادة الشعب المعبر عنه تعبيراً حراً².

كما نبه الجابري إلى علاقة الوطن والمواطنة بالعولمة، وخطر العولمة على الدولة والأمة والوطن حسب وجهة نظره يكمن في السعي إلى إضعاف سلطة الدولة وما ينتج عنه هو الرجوع إلى مرحلة سابقة للدولة تكون فيها القبيلة والطائفة والجهة والتعصب المذهبي، كأطر سابقة للدولة تساهم في تفتيت المجتمع وتشتيت شمله³.

وفي الأخير نستطيع القول أن ما نخلص إليه من فصلنا هذا، هو أن المواطنة هي صفة المواطن التي تكفل له الانتماء إلى الجماعة أو المدينة أو الدولة، وممارسته لتلك الحقوق والواجبات التي يختلف كل فيلسوف في تحديدها متأثرين في ذلك بانتمائهم الاجتماعي والعائدي غير أنهم يتفقون جميعاً على ضرورة المواطنة.

¹ - محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1997، ص 148.

² - <http://www.liberaldemocraticpartyofiraq.com/serendipity/index.php?/archives/2253.html>

³ - محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر المعاصر، مرجع سابق، ص 149.

الفصل الثاني

التربية الطبيعية والتأهيل للمواطنة في
فكر جون جاك روسو

المبحث الأول: جون جاك روسو حياته وظروف عصره

المبحث الثاني: التربية والاجتماع الإنساني

المبحث الثالث: المبادئ التربوية العامة

إن التربية عملية اجتماعية، بمعنى أنها تعد صورة لحياة المجتمع الذي نعيش في إطاره، لذلك فهي لا تأتي من فراغ أو عدم¹، فهي عملية رعاية وتهذيب وتنقيف، لكن السؤال الذي يطرح نفسه، كيف يتم نقل هذه المبادئ التربوية التي تنمو مع الإنسان؟.

هذه المبادئ الي نريدها لا يمكن أن تدق في النفوس كما تدق المسامير على الخشب إنما تعود إلى الوسط الذي يعيش فيه الإنسان²، فالتربية دعوة رافقت المجتمعات البشرية، فتجلت على شكل فلسفات. ولأنها شيء مقدس ومبجل تحدث عنها القدماء خاصة اليونان فهم يرون بأن الإنسان كلما شعر بعبء المجتمع وثقل قيوده لجأ إلى الطبيعة³، أي أن الطبيعة أنبل شيء، لتهذيب نفس الإنسان ومشاعره، حتى إذا ما انتقلنا إلى العصور الحديثة فإننا نجد التطورات الفكرية، وعلى رأسها فرنسا التي انتقلت لها الزعامة الفكرية في القرن الثامن عشر. ونزعات تربوية كالنزعة التي قادها "روسو" في النصف الثاني من القرن الثامن عشر من خلال كتابه "إميل" والذي كان نقداً عنيفاً لأسلوب التربية السائدة في عصره واستطاع أن يضع الحجر الأول في بناء التربية الحديثة لما أوجده من أثر كبير في توجيه نظريات التربية وأساليبها لذا فقد أستحق أن يطلق على العصر الذي ظهر فيه "عصر الطفل" إذ بدأ بالدعوة إلى وجوب فهم الطفولة ودراستها ومعرفة ميول الأطفال القرائية ذاتيا، ويمكن أن نحدد موقف روسو من التربية مبدئياً، فهو يقول: "يجب أن تختار شيء يجعل من الطفل إنساناً أو مواطناً ونستطيع أن نجعله كليهما معا"⁴. إذن ما هي التربية التي كان ينشدها روسو ويدعو إليها؟ وما هي وسيلة الإصلاح في ذلك؟ وقبل ذلك من هو روسو وما هي ظروف عصره؟

1 - مي مكى شبر: أثر المكتبة على ميول الطفل، المجلة العربية للمعلومات، مجلة علمية نصف سنوية، ادارة التوثيق والمعلومات، تونس:1997، ص09.

2- محمد ناصر: قراءات في الفكر التربوي، وكالة المطبوعات الكويت، ج1، ط1، دت، ص452.

3- عبد الأمير شمس الدين: الفكر التربوي عن ابن طفيل، دار اقرأ للنشر والتوزيع والطباعة بيروت، ط1، 1984، ص51.

4-مي مكى شبر، مرجع سابق، ص12.

المبحث الأول: جون جاك روسو حياته وظروف عصره .

إن لتجربة الفيلسوف كما عاشها في واقعه أثرا بالغا في تأسيس الرؤية الإجمالية لفلسفته، ذلك أن ترابط الأفكار الإنسانية لا يتخذ إطلاقا صورة الشمول والإطلاق. بل أنها صورة للتزامن ولترابط الأفكار وتفاعلها، وهكذا يكون منهج الحفر وراء البنى المعرفية والتاريخية والاجتماعية، لأهم الآليات التي يتخذها المنهج المتحرر لكي يوصلنا إلى حقيقة تراكم الأفكار وهذا ما يدعونا إلى قراءة في حياة "جون جاك روسو" وعصره بما أن عصر الأنوار يفرض تصور التاريخ لكي نستوعب الأفكار.

إذا كانت أوروبا في القرن الثامن عشر مسرحا للصرعات، تقودها إنجلترا التي دامت سيطرتها حتى سنة 1731م، حيث نهضت فرنسا محققة التوازن والثروة والرخاء الداخلي، لتستعيد نفوذها عام 1740م، حين أخذت توجه السياسة الأوروبية. فتقدمت صناعاتها وتجاريتها، لكن مالبث أن تدهور الوضع الإقتصادي وقاست الأزمات، فقام رجال الفكر فيها ينبهون الناس إلى سوء النظام، ليزداد الحال سوء بتولي "لويس السادس عشر" الحكم فينفجر بركان الثورة عام 1789م، وزاد ثقل الجانب الاجتماعي أثرا، فعلى الرغم من إحتفاظ فرنسا بعظمتها فهي أكثر البلدان الأوروبية سكانا وأفضلها تنظيما، لكن الفوارق الطبقيّة وتدهور أحوال الريف الفرنسي وإرتفاع الأسعار وتفشي البطالة وإزدياد الضرائب، أدت إلى نتيجة حتمية لهذه الأوضاع الرديئة فكانت الثورة. أما عن الحياة الفكرية فقد بعث عصر التنوير تغيرات شتى في المجالات الفكرية ورفضه لظلمات الجهل والسعي للعلم وتحرير الإنسان من أجل بناء مجتمع جديد. إذ ظهر فلاسفة ومفكرون خالفوا ما كان سائدا وأنتشر العلم والفكر والأدب والفلسفة وأرنتت المجتمعات. وزاد ذلك الكشوفات العلمية فازدادت ثقة الناس بالعلم والاحتكام للعقل¹، حين اندفعت أوروبا كلها - عدا روسو - تثق بالعلم وتؤمن بالعقل،

¹ - موريس شريل وميشال ابي فاضل: روسو حياته ومؤلفاته واثاره، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1978، ص ص 08-13.

في حــــل كل ما يعترض الإنسان من مشكلات¹، وقامت حركة فكرية فلسفية تصارع الأوضاع السائدة لبلوغ سعادة الإنسان بإنماء عقله وتعليمه حقوقه وواجباته، وتخليصه، من جاهلية القرون الوسطى، لا سيما في فرنسا التي قادها فلاسفة وأدباء كان أبرزهم : مونتسكيو، فولتير، ديدرو وروسو، هذا الأخير الذي كان بشجاعته وجرأته ذا فضل كبير في توعية الشعب وإطلاعه على كل ما يجرى حوله من قضايا، وقد أدى إلى قيام الثورة الفرنسية ولعب دور المرجع الفكري لرجالها².

ولقد كانت ولادة روسو كما يشهد في إعتراقاته، بجنيف يوم 28 جوان 1712³، تعلم القراءة على يد والده بفضل كتب وقصص تركتها والدته التي ماتت، فكان يقرأها مع والده بعد العشاء، هذا الإطلاع قد أدى كما يقول روسو إلى نشأة روح الحرية في نفسه وجعلته وكأنه خلق مواطنا في جمهورية أو ولد لوالد كانت وطنيته هي أكثر عواطفه اضطراما . وورث عن عمته شغفه بالموسيقى⁴، طيلة حياته التي كانت مليئة بالأسفار والأحداث والأسماء البارزة، وكانت البداية في مدرسة القس "لاميرسييه " في مدينة "بوسي" مع ابن خاله حيث عاش حياة هنيئة أحب فيها المطالعة والدرس ونمى أخلاقه ليعود بعدها إلى جنيف . وفي سن الخمسة عشر أراد تعلم الوعظ الذي كما يقول: "كــــان يلوح لي شأنها هاما لكن وبسبب نقص المال توقفت عنها " ليدخل في تعلم عدة حرف باءت كلها بالفشل، نظرا لسوء معاملة معلميه فظهرت عدة نقائص عنده، كالكذب والتكاسل والسرقة، لكن راجع نفسه وعاود الإقبال على الكتب والطبيعة⁵، التي يقول عنها في نزهة مــــن نزهاته" ... هذه المناظر

1- أحمد أمين وزكي نجيب محمود: قصة الفلسفة الحديثة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ج1، ط1، 1968، ص 165.

2- موريس شربل وميشال ابي فاضل، مرجع سابق، ص ص 14-15.

3- مرجع نفسه، ص ص 17-18.

4- جان جاك روسو: إعتراقات جان جاك روسو، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ج1، ط1، 1968، ص ص 06-11.

5- محمد حسين هيكل: جان جاك روسو حياته وكتبه، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط2، 1965، ص ص 23-31

الجميلة وهذه الغابات والبحيرات وهذه... الصخور وهذه الجبال التي كان لمرآها أبقى أثر في قلبي... " 1.

وفي السادسة عشر من عمره غادر موطنه جنيف هاربا من عقاب تأخره وإقفال أبواب المدينة عليه. ليبدأ رحلة التشرد، وكان أول لقاء بالقسيس "بونفير" الذي عمل على نقله إلى الكتلكة ونجح في ذلك حين بعث به إلى مدام "دي ورنس" بمدينة "انسي"² التي عطف عليه طيلة عشر سنوات ودفعته إلى المدرسة والقراءة وشجعتة على الموسيقى، إشتغل فيها ككاتب في دوائر الحكومة، وكمدرس للموسيقى، وكسكرتير، تعلم اللاتينية والإيطالية وإطلع على كتابات الفلاسفة والمفكرين والعلماء وفي مختلف العصور . وفي عام 1741م قطع علاقته بهذه السيدة، والتي كانت الأم والصديق، ورحل إلى باريس حيث تعرف على "تريز" الخادمة التي عاش معها ثلاثة وعشرون عاما قبل أن يتزوجها، وأنجب منها خمسة أطفال كان مصيرهم "دار اللقطاء" وتعرف عن كذب على الحياة الباريسية وما شملته من طبقة فاحشة، وظلم وفساد وتحلل في الأخلاق وإتجاه مادي متطرف، كما أتيح له أن يتصل بزعماء حركة التنوير وأن يعقد مع بعضهم كـ "فولتير" و "ديدرو" علاقات صداقة، وفيها عاش الفقر والحرمان والبطالة، والذي ولد ثورة في نفسه وكانت حياته المادية تسوء يوما بعد يوم، وفيها أصبح روسو ذا سعة إطلاع وإتساع في دائرة الخبرة والنضج الفكري.

لكنه بقي حتى السابعة والثلاثين من عمره لم ينتج شيئا يستحق الذكر وأول يقضة عقلية حدثت له كانت في أكتوبر عام 1749م عندما أيقظ قواه العقلية سؤال أكاديمية "ديجون" العلمية : هل تقدم العلوم والفنون أدى إلى نقاء الأخلاق أم إلى فسادها ؟ فأجاب عنه بمقاله "خطاب في العلوم والفنون" يقول فيه بفساد الأخلاق بتقدم العلوم والفنون، ونال به جائزة الأكاديمية. فكان هذا الخطاب نقطة التحول الكبرى في حياته الفكرية. لتنفجر قريحته وتجد

¹ - جان جاك روسو: هواجس المنتزه المنفرد بنفسه، تر: بولس غانم، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، بيروت، دط، 1983، ص 106.

² - موريس شربل وميشال ابي فاضل، مرجع سابق، ص 22.

بمقالات وكتابات أخرى شرح فيها أسس ومبادئ المذهب الطبيعي الذي آمن به¹، وكان "أصل التفاوت بين الناس" المقالة الثانية التي قدمها لأكاديمية "ديجون" عام 1753م عن سؤالها ما أصل التفاوت بين الناس؟ وهل يجيزه ناموس الطبيعي؟ هذا الخطاب الذي أهداه إلى جنيف ومواطنيها مفتتحاً آياه قائلاً "... يا أيها العظماء المجلدون أصحاب السيادة...".² بعد أن عاد إلى جنيف واعجب بالنظام الجمهوري الذي سادها وتحمس له وعند وصوله استقبله مواطنوه الأصليون بحفاوة وإحترام. إلا أنه كان خجولاً بسبب تضييع حقوقه كمواطن من جنيف³، كما نشر مقاله عن "الإقتصاد السياسي" بالموسوعة الكبرى عام 1758م التي يشرف عليها "ديدرو" وغيره من الموسعيين. ثم "هولوز الجديدة" عام 1761م التي تضمنت بعض أفكاره في الزواج والحياة الأسرية، ونشر في سنة 1762م كتابه "العقد الإجتماعي" و"اميل"، الأول في السياسة والحكومة المدنية والثاني في التربية. وبقدر ما أنعمت عليه كتبه من شهرة ومجد، كانت هي نفسها التي جرت عليه البؤس والشقاء في آخر حياته حيث أثارت أفكاره السياسية المتحررة وكتابه "العقد الإجتماعي" عليه حفيظة رجال الحكم والسياسة، كما أثار عليه كتاب "اميل" سخط رجال حركة التنوير، وعلى رأسهم فولتير ورجال الدين من كلا المذهبين، فأمر بحرق كتابه والقبض عليه ففر من باريس إلى سويسرا ثم إلى إنجلترا عند "دافيد هيوم"⁴، لكن ما لبث أن بدأ بتصورات وهمية وشك اتجاه أقرب الناس إليه، وزادت كتابات فولتير في تقاوم نوبة الجنون التي اعترته وأخذ يتصور أن الجميع يريدون إضطهاده⁵ وتولدت فكرة المؤامرة لديه حيث يقول "... ولقد تفننوا في بغضائهم فالتمسوا شر عذاب يمكن أن ينزلوه بنفسه المرهفة الإحساس"، ويقول: "... ها أنا قد

¹ - عمد محمد التومي الشيباني: تطور النظريات والأفكار التربوي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، دط، 1971، ص ص 156-158.

² - جان جاك روسو: أصل التفاوت بين الناس، تر: بولس غانم، موفم للنشر، الجزائر، دط، 1991، ص ص 07.

³ - موريس شريل و ميشال ابي فاضل، مرجع سابق، ص ص 37-38.

⁴ - عمد محمد التومي الشيباني، مرجع سابق، ص ص 158-161.

⁵ - موريس شريل و ميشال ابي فاضل، مرجع سابق، ص ص 42-43.

أمسيت وحيدا على الأرض فلا شقيق بعد اليوم ولا قريب ولا صديق ولا عشير لي سواي...¹، ليقرر الرجوع إلى باريس عام 1767م فيودع كتابه "الإعترافات" لدى شاب إنجليزي . كان مارا بباريس لينشرها بعد موته والذي يتكون من جزأين الأول يتحدث فيه عن الفترة ما بين (1716-1741) م والثاني عن الفترة ما بين (1741 1765) م ليعود للعمل في مهنته الأساسية كناقل نوتات موسيقية وهنا قام بتأليف كتابه "تأملات المتنزه المنفرد" كتبه في أحضان الطبيعة، يتكلم فيه على نفسه ليتوفى فجأة في جويلية 1778م عن عمر يناهز 66 عام، وكان آخر ما طلبه رؤية الطبيعة الخضراء ليدفن في جزيرة الحور وينقل بعدها إلى البانتيون²، تلك كانت حياة روسو وأهم مؤلفاته .

وإن المستقرى لهذه المؤلفات يستطيع إستخلاص أهم العوامل التي أثرت في فكره كتلك الصفات والسمات التي ورثها عن والديه إذ ورث عن أبيه الخيال الشارد وخفة الروح والميل إلى الكسل والاندفاع وراء الشهوات، وقلت الإعتداد بالفضائل وعدم الإستقرار. وورث عن أمه قوة العاطفة والروح الفنية وحب الجمال،بالإضافة إلى حياة البؤس والشقاء والتشرد التي عاشها، وما ترتب عن هذه الحياة من إتصال وثيق بالطبيعة والطبقة الفقيرة البائسة ومن شعور بالفروق الواسعة بين الطبقات.

إتصاله عن طريق القراءة والإطلاع الشخصي بالتراث الفكري الذي تركه الفلاسفة والعلماء والمربون، من مختلف العصور، والكتب التي يمكن أن نجد صدى لتأثيرها في كتابات روسو ويعترف هو نفسه بتأثيرها في أفكاره، كجمهورية أفلاطون التي قال عنها في بداية كتابه اميل "إقرأوا جمهورية أفلاطون إنها أجمل بحث في التربية تم القيام به إطلاقاً"³ بالإضافة إلى رسائل "منتاني" في التربية ورسائل "جون لوك" في التربية وفي الحكومة المدنية والتسامح ورسالة "الكسندربوب"، وكتب "هوبز" ورسائل "غروتويس" وكتاب "ديفوي

¹ - جان جاك روسو، هواجس المتنزه المنفرد بنفسه، ص 13.

² - موريس شريل و ميشال ابي فاضل، مرجع سابق، ص ص 43-117.

³ - جان جاك شوفاليه: تاريخ الفكر السياسي من المدينة الدولة الى الدولة القومية، تر: محمد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1993، ص 42.

"بعنوان "روبنسن كروزو" وكتابات" باسكال" و"فيتلــــون" و"مونتيسكيو" الذي أجّله وأولى له الإحترام هذا العبقرى الذي كما قال روسو في كتابه العقد الإجتماعى¹، وفولتير وغيره من رجال حركة التنوير وديكارت وغير هؤلاء مــــن الفلاسفة والمفكرين الذين إتصل بكتاباتهم وتأثر بهم . وحركة التنوير التي إتصل بزعمائها وقرأ لهم، وعاش معهم فترة غير قصيرة من الزمن في باريس²، هذه أهم العوامل التي أثرت في أفكاره السياسية والإجتماعية والدينية والتربوية وساعدت على تكوين نزعتة الطبيعية .

المبحث الثاني: التربية والاجتماع الانساني

طرح روسو صورة جديدة للتربية من خلال إعادة صياغة للطبيعة البشرية حيث يرى أن التربية الطبيعية أفضل وأن الطبيعة البشرية قادرة على تحميل المعرفة، أما المجتمع فهو من يحدث الفساد وأنه مبعث الشر ومصدره وعلينا أن نؤمن ايماننا مطلقا بان الطبيعة ليس فيها شر وأن الفساد من المجتمع وفي أحضانها يجب أن ينمو الطفل ليحقق تكوينه الانساني، هذا ما حمله كتابه "إميل والتربية" الذي أصدره سنة 1762م وهو أشهر كتبه في التربية والذي يعد مصدر من مصادر التربية والذي استهله بمقولته الشهيرة: " كل شيء يصنعه خالق البرايا حسن وكل شيء يفسد بين يدي الإنسان"³، وكتب في بداية كتابه إميل: " إقرأوا جمهورية أفلاطون إنها أجمل بحث في التربية تم القيام به إطلاقاً"⁴، لكن وعلى الرغم من اطلاعه على أفكار سالفه إلا أن فكرته التربوية التي أراد أن ينشدها في عصره أخذت منحى آخر واتبعت وسائل أخرى، لأنه كان يرى أن الإنسان بطبيعته أفسده الاجتماع الذي غشى على تلك الفطرة، بابتعاده عن الحالة الطبيعية حتى بلغ حالة التدهور في القرن الثامن

1- morcel prelot: histoire des idees politique- dalloz printed in France- quateriemme edition sans annee, p405.

2- عمد محمد التومي الشيباني، مرجع سابق، ص159.

3 -jean jaques rousseau: emile ou de l'education, presente par francois et pierre recharde,...sons eddition, sans annee, p206.

4- Michel coz: jean jaques rousseau librairie vuibert, paris, p168.

عشر ولاسبيل لإصلاح ذلك الفساد إلا بالقضاء عليه والعودة بالأخلاق إلى أحضان الطبيعة، بهذه الفكرة أراد روسو أن نرى إنسان الطبيعة بانتظار أن يصبح هذا الإنسان إنسان الإنسان، إنه بالفعل ينوي ربط خصال النوع البشري وفق الخصال المستمدة من الطبيعة والتي تمكنت التربية السيئة والعادات من إفسادها فقال: "أيها الإنسان من أي قطر كنت، ومهما كانت آراؤك، اسمع هاهو تاريخك كما اعتقدت أني قرأته ليس في كتب أمثالك الذين هم كاذبون، وإنما في الطبيعة التي لا تكذب مطلقاً، إن كل ما سيكون منها سيكون صحيحاً¹.

أجل لقد سخط روسو على تلك الحالة التي ألفها الإنسان، ولا يكاد يتخلى عنها إنها حالة العبودية وهذا ما جعله دائماً يغالي في مذهبه الطبيعي. فكان شعاره "عودوا إلى الطبيعة"²، فهو يدع جانباً ذلك المجتمع الفاسد لما يرى فيه من دمار وخراب وعدم المساواة والذي هو في حد ذاته يخضع لحكمه، ومقتنع بفساده، ومرتمياً في أحضانه دون رضى منه. لذلك حرص في كتابه أن يكون الفتى إميل ابن الطبيعة، فوضع خطة لتربيته وتحضيره للمواطنة حيث يقسم هذا الكتاب إلى خمسة أبواب يتبع فيها خطى الطفل إميل إلى أن يصبح رجلاً، شارحاً في كل مرحلة من مراحل نمو إميل التربية المناسبة، حيث تبدأ المرحلة الأولى من ولادة إميل إلى سن الخامسة أين أولى لها عناية خاصة فهي بداية التربية قائلاً: "أقول مكرراً أن تربية الإنسان تبدأ عند ولادته وأنه يتعلم قبل أن يتكلم أو يفهم وتسبق التجربة الدروس ويكسب الإنسان كثيراً قبل أن يعرف مرضعته³، وفي هذه المرحلة، أصر روسو على نقل طفله إلى الريف بعيداً عن مظاهر المدينة، وأن تكون تربيته تلقائية حتى يعد رجلاً قادراً على أن يعيش ويستقل بنفسه وهي مرحلة تهتم بالتربية الجسمية والنفسية، ثم المرحلة الثانية من سن الخامسة إلى سن الثانية عشر أين يعتمد على التربية السلبية التي يكون فيها مربى إميل عاطلاً صامتاً لا دور له إلا المشاهدة، بينها الطبيعة هي من تعلم⁴، ثم المرحلة الثالثة

¹ - جان جاك شوفالييه، مرجع سابق، ص ص 478-479.

² - عبد الأمير شمس الدين، الفكر التربوي عند ابن طفيل، ص54.

³ - jean jaques rousseau: emile ou de l'education, op-cit, p96.

⁴ - عبد الله عبد الدائم: تاريخ التربية، مطبعة جامعة دمشق، دط، 1959، ص200.

من الثانية عشر الى سن الخامسة عشر خصصها للنشأة العقلية الحققة فعلمه العلوم عن طريق الأسفار والممارسة ودفعه لقراءة كتاب "روبنسون كروزو" الذي عاش وحيدا في جزيرته مع الطبيعة والاكتفاء به¹.

تليها المرحلة الرابعة حتى سن العشرين وفيها يصل إميل إلى سن المراهقة الذي يتميز بالنمو العقلي بعد النمو الجسمي والحسي وهذه هي الولادة الثانية التي تكلم عنها قائلا : " اننا نولد مرتين الأولى لنكون والأخرى لنحيا..."² إلى هنا يكون روسو قد أهل إميل وأعدّه ليكون مواطنا صالحا وفي نفس الوقت يعد له الزوجة الصالحة " صوفيا" و هي المرأة المثالية الجديرة بإميل لأنها طاهرة عفيفة ومرحة أعدها للسعادة الزوجية.

إلا أن التربية التي نشدها روسو لم تكن في الحقيقة موجهة لعامة الأطفال بل موجهة في الأصل للأغنياء قائلا: " التربية الطبيعية يجب أن تجعل الرجل صالحا لجميع الأحوال البشرية والواقع أن تنشئة الفقير ليكون غنيا أقل صوابا من تنشئة الغني ليكون فقيرا..."³ . والحقيقة أن آراء روسو كانت انعكاسا للأوضاع الإجتماعية والسياسية في عصره، حيث رأى فيه كل المتناقضات مما جعله ثائرا على المجتمع ناقما على أوضاعه بما فيه الطريقة التربوية التي كانت تتبع من طرف المربين آنذاك. مع أنه لم يكن أخلاقيا بطبيعته ولا بنوع تعليمه إنما كان أخلاقيا بالصدفة، فقد كانت نشأته مثلا أعلى لسوء التربية أو لعدمها - إن صح القول - فكانت المصادفة هي السبيل لجعله رجل أخلاق ونصير الفضيلة، ومع كل ذلك فهو نابغة استطاع أن يُحمل المجتمع سبب مساوئ خلقه فله موقف سلبي تماما من المجتمع المتمدن، لذلك رأى أن أول عمل لتحقيق نظام تربوي ناجح هو أن نأخذ الطفل بعيدا عن المجتمع وتربيته في أحضان الطبيعة⁴

¹ - عيد الله عبد الدائم، مرج سابق، ص 205.

² - jean jaques rousseau: emile ou de l'education, op-cit, p248.

³ - jean jaques rousseau: emile ou de l'education, op-cit, p306.

⁴ - jean jaques rousseau: emile ou de l'education, op-cit, p317.

والحقيقة أن عداؤ روسو للمجتمع لا يعني له الإبتعاد عن الإجتماع، بل يرى في الاجتماع الشيء الحتمي الذي يأتي فيما بعد، لأنه مهما فصّلت النشء عن الجماعة أو الأسرة لفترة زمنية معينة فإنك لن تمحو فيه أثر الاجتماع، فالظن بتكوين مخلوق جديد ليس بينه وبين جماعته اتصال هو ما لا يمكن تحقيقه¹ فالفرد الخاضع للتربية ما هو إلا عضو في الجماعة فلا يمكن له الانفصال عنها، لأنه سيجد نفسه فيها لا بطبيعة تكوينه فقط، ولكن بالضرورة والحاجة . فكل فرد عضو في جسم المجتمع . ولتكوين مجتمع سليم يجب إيجاد أناس سليمين.

وقد ذكر روسو في اعترافاته أنه كتب إميل إجابة لطلب أم فاضلة، ولاشك أنها إحدى تلك النبيلات والجميلات ممن كان يعيش في كنفهن ويرجوا رضاهن . وبهذا كان المتشرد إبن الشعب أرسنقراطيا أكثر من الأرسنقراطيين أنفسهم²، لاهتمامه بتربية أطفال النبلاء ولعل هذا ما دفع الكثير من النقاد من خصومه إلى التساؤل كيف يكتب روسو كتابا في التربية وهو لم ينل حظه منها، بل أنه فشل أشد الفشل في تربية أطفاله، ألم يكن يحس أنه يلقي على الناس درسا لم يقدّم به قبلهم؟ وهل كانت حياته صورة للتربية الحسنة؟

قد تحمل هذه النقطة على عاتق هذا المفكر لأننا نعلم أن فاقده الشيء لا يعطيه، لكن روسو أجابهم بأن الفيلسوف قد يفشل في حياته العملية، لكن هذا الفشل لا يمنعه من أن يكون أوسع انتصارا في كتاباته النظرية، خاصة لما رآه في عصره من الفساد فسلك سبيل الإصلاح التربوي الطبيعي حيث بدأ بالطفل في انتظار أن يكون رجلا حقا ومواطنا صالحا تغرس في نفسه مبادئ نبيلة.

¹ - محمد حسين هيكل، مرجع سابق، ص 232.

² - جان جاك روسو: اعترافات جان جاك روسو، ج1، ص220.

المبحث الثالث : المبادئ التربوية العامة

في الواقع يعتبر كتاب إميل أساس لكل مدرس ومرجع لكل أم وملاذ لكل بيت حدد فيه روسو جملة من المبادئ اعتبرها السبيل إلى الإصلاح والتربية، والمتفحص لطيات هذا الكتاب سوف يلمح بعض السمات والمبادئ التربوية العامة فتهب له وحدة وطابعا مذهبيا مطلقا.

1 - الإعلاء من شأن الطبيعة :

إن الخضوع إلى الطبيعة هي أهم ميزة في فكر روسو التربوي، فهو يحث دوما بالعودة إليها مع الإيمان بوجوب مراعاة قوانينها في التربية، فالطبيعة هي أساس تكوين شخص الإنسان وعقله والتربية التي تسير وفقا للطبيعة، تحترم الغرائز الفطرية للطفل ونزعاته ونزواته فتحرها بدل كبتها، كما تعمل على تعويد الطفل على حياة البساطة والتكشف والاعتدال في كل شيء والاعتماد على النفس وتحمل الألم في وقت مبكر، وتعمل جاهدة على عدم تلبية كل حاجيات الطفل وتدليله " ... إنني أؤكد أنه لا سبيل لتذوق الخير العظيم إلا إذا عرفنا جانبا من الشرور الهينة، هذه هي طبيعة الإنسان فإذا كان الجسد على أحسن حال فسدت الروح والشخص الذي لا يعرف الألم لا يمكن أن يعرف الحنان الإنساني، ولا عذوبة الرحمة ولا الشفقة لأن قلبه لن يتحرك لشيء ولن يكون اجتماعيا"¹

إذن روسو يدعو إلى مبدأ إتباع الطبيعة، بهذا يرفع من شأنها لأنه يرى فيها الموجه التربوي الفعلي ولعل تقديسه لها هو الذي جعله يقول أنها النظام التربوي والموجه الحقيقي لسلوك الإنسان، فمبدأ إتباع الطبيعة واجب وجب مراعاته وتطبيقه في إخراج النشأ الصالح المرغوب فيه.

2_ مبدأ براءة الطفل :

روسو يؤمن إيمانا قطعيا بالطبيعة الخيرة الأصيلة للإنسان وتتكرب كل إنحراف أصلي في قلبه من حقد وكراهية وأنانية وفخر، بل كل هاته الصفات يكتسبها الإنسان من تلك البيئة

¹ -jean jaques rousseau: emile ou de l'education, op-cit, p445.

الفاسدة التي يرى فيها مصدر الفساد فالطفل له قدرات فطرية معينة عند الولادة والإنسان عليه إحترام النمو الطبيعي لهذه القدرات فالتربية الطبيعية لا تقتصر على تجنب هذه الأنواع من الظلم التي يفرضها المجتمع ولكنها تعمل على خلق مجتمع أفضل وأكثر مساواة .

وبهذا يرى روسو أن الطريقة التربوية المثلى هي جعل الطفل يعيش لحظات الألم والقهر وهو في سن مبكرة ليتعود عليها وهو راشد ولا شك أنه قد أحسن إذا حارب التشاؤم الذي يقر به معاصريه من المرابين الذين يرون الطفل كائن مملوء بالفساد والقبح حتى قبل أن يولد. فعقد العزم على إصلاح هذه النظرة الخاطئة فلقد كان الاتجاه السائد آنذاك ينظر إلى الطفل على أنه رجل صغير وأن عقل الطفل له نفس الصفات التي نجدها في عقل الكبير. فعدم نضج الطفولة فراغها سيملاً بسهولة إذا أهملت مرحلة الطفولة تماماً .

إذن روسو يرى في المجتمع منبع الفساد والخطيئة بمعتقداته الخاطئة، وعلينا حماية الطفل من هذه الآثار السيئة فالطفل خال من كل إنحراف وإنحلال أصلي، يولد على فطرة بريئة خالية من الشوائب والفساد.

3_ مبدأ الحرية والاعتماد على النفس:

"ولد الإنسان حراً إلا أنه مكبل في كل مكان بالأغلال على ذلك النحو يتصور نفسه سيد الآخرين الذي لا يعد وأن يكون أكثر عبودية...¹، مقولة تؤكد لنا مدى تقديس روسو للحرية واستتكار لكل ضغط عبودي. فالإنسان الذي يجعل من نفسه عبداً لا يهب نفسه بل يبيعه، هاته الأفكار مرآة تعكس فكرة السياسي الذي لا يمكن البتة فصله عن فكرة التربوي، فالتربية تخلق ذلك الإنسان الصالح بقيمه العليا التي تجعله يرفض كل قيد وضغط . فهو حر مادام تربي تربية حرة بعيدة عن كبت المعتقدات الاجتماعية التي يرى فيها روسو سلب حرية الفرد، وقتل مواهبه بل وأكثر من ذلك فهو يحقرها لأنها أصل الشر الإنساني. ولهذا أراد روسو أن يعود إلى الطبيعة، فهي التي تضمن للإنسان الحرية، والعلاقة بين الحرية والطبيعة وطيدة جداً، وهذا يجعلنا نصرح بأنه لولا الحرية لما لجأ روسو إلى الطبيعة.

¹ - جان جاك روسو: العقد الاجتماعي، تر: ذوقان قرقوط، دار القلم، بيروت، لبنان، دط، دت، ص36.

إذن الحرية أهم مبادئ التربية الطبيعية تخلق مواطنا ينشد الحرية وينبذ القيود، فالإنسان حر عليه المحافظة على حريته، ففي التربية لانشعر الطفل بقساوة الناس وببطشهم، بل فقط بقساوة الطبيعة فهي وحدها تربيته، وهي وحدها تقسو عليه، وهي وحدها تجعله يسلك مسلك الحرية إلا أن هذه النظرة لمسألة الحرية لاتعني الإفراط في ممارستها فالحرية عند روسو تقع في الموقع الوسطي بين الإطلاق والتقييد، لأن الحرية المطلقة ليست في صالح أي نظام تربوي . كما أن التسلط والتقييد ظلما في حق الإنسان والإنسانية جمعاء ولعل هذا التقييد تجلى لروسو من خلال المدارس ... ولا أعد نظاما عاما تلك المؤسسات المضحكة التي تسمى كليات...¹ .

4- التأكيد على التربية السلبية :

لقد سبق أن وضحنا بأن التربية السلبية من أهم المبادئ التي أكد عليها روسو في تربية الطفل خلال المرحلتين الأولى والثانية من مراحل حياته . فالمرابي يجب أن يبقى بعيدا عن الطفل يراقب ويشاهد حركاته وليتركه في أحضان الطبيعة لكي تتولى رعايته . وهنا هو مراقب، لا هو موجه ولا مرشد، فعليه أن يبتعد كل البعد عن الطفل إلا إذا أستجد هذا الأخير به. فهنا يكون موجه ومفسرا لكل غموض إنتاب الطفل .لذا يعتبر دور المرابي سلبي بعيدا عن الممارسة، وعمد "روسو" إلى هاته الفكرة في هذا السن المبكرة للوصول إلى نتائج إيجابية، فإذا ما اعتمد الطفل على نفسه في مواجهة الطبيعة وقسوتها فلن يعيش لحظات الألم والتكشف والإعتماد على النفس "... بدلا من أن أوجه اهتمامي إلى تجنب إميل الجروح سيسووني جدا ألا يجرح نفسه مطلقا وأن يكبر قبل أن يعرف الألم، فالعذاب هو أول شيء يجب أن يتعلمه ..."¹وروسو في مخططه التربوي يشير إلى العديد من الإشارات التي تعبر عن خصائص التربية السلبية والتي في الوقت نفسه هي خصائص التربية الطبيعية فمن بين خصائصها نجد الخبرة والممارسة العملية، والاحتكاك بالأشياء أكثر من الاعتماد على التلقين اللفظي، والابتعاد عن عدم حشو ذهن الطفل بالألفاظ التي لا قيمة لها ولا تعطي إلى الطفل

¹ رابح تركي: النظريات التربوية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 1982، ص 125.

أية فائدة وفي هذا السياق يقول روسو: ".لا ينبغي أن تلقن التلميذ دروسا لفظية فالتجربة وحدها هي التي يجب أن تتولى تعليمه وتأديبه، فالتربية الأولى ينبغي أن تكون سلبية...".¹ ويدعو روسو أيضا إلى الابتعاد وعدم الغلو في حماية ورعاية الطفل ويجب تركه جانبا إلى القسوة والإهمال ليعيش نوعا من الحرمان فذلك نافع له، لكي نعود وقت ما نراه حقا في أمس الحاجة إلينا كمربين . وكذلك أحسن شيء ألا يكتسب الطفل أية عادة، فلا نلقنه شيئا ولا نلقي له بشيء²، بل نجعله يعالج الأشياء بطريقته لكي تكون لديه الخبرة والممارسة العملية الفعلية، ويبتعد عن الإهمال والإتكال.

وفي الواقع قد وفق روسو إلى أبعد الحدود حين دعى إلى تطبيق هذا النوع من التربية، لأنها تخلق طفلا سليما ذهنيا وجسديا . فدفعه إلى الإعتماد على النفس . ورغم مبالغته في الحرية المطلقة لميول المتعلم وكذا حرمانه للمرأة من التعليم وجعلها خادمة للرجل.

لكن من خلال تحليلنا لفكر روسو التربوي، ومذهبه الطبيعي نؤكد على أن هدفه الأسمى من التربية هو الطبيعة في حد ذاتها، "هي فن إعداد الرجال للحياة دون الخروج عن إطار الطبيعة"³، لأن التربية الطبيعية تسعى إلى تنمية ملكات الطفل وقواه العقلية، وتنمية روحه وتزويده بالكثير من المعارف النافعة في الحياة، وتقربه بل تحببته في الفنون اليدوية التي تصنع منه رجلا صالحا ومواطنا مثالي لعل هذه الأهداف تتحقق في بداية حياة الطفل لتتطور بعد ذلك مع آخر مراحلها لأن التربية بعدها تصبح تهدف إلى تنمية جسمه وصقل شخصه، وتعليمه كيفية الإعتماد على النفس ومواجهة أشد المتاعب .

وما نخلص إليه أن التربية التي أرادها روسو هي التي تسعى إلى إعداد الرجال قبل الأطفال ولا يمكن لنا أن نتصورها بعيدة عن الطبيعة، فلكي نواجه ضجر المدينة في

¹ -jean jaques rousseau: emile ou de l'education, op-cit, p445.

² -محمد حسين هيكل، مرجع سابق، ص 240.

³ -jean jaques rousseau: emile ou de l'education, op-cit, p152.

المستقبل وقهرها فلنتعود على الطبيعة لأنها ستخلق في نفس الإنسان رادعا قويا يجعله حاجزا ضد كل قهر وإضطهاد وهذا لا يعني، أن الطبيعة قد تسلب الحرية من بين أحضان الطفل بل على العكس من ذلك، هذه هي التربية الحقيقية التي يرى روسو بأنها ستخرج لنا مواطنين صالحين يواجهون المجتمع فيما بعد بتربيتهم الصالحة، يقدرون حقوقهم ويحترمون واجباتهم الفعلية.

الفصل الثالث

المواطنة والحكم الديمقراطي من

منظور جون جاك روسو

المبحث الأول: العقد الاجتماعي والمواطنة

المبحث الثاني: الإرادة العامة والسلطة المطلقة

المبحث الثالث: أشكال الحكومة والتحقيق الديمقراطي

رغم كل ماتوصل إليه روسو من خلال إخراجهِ فردا صالحا بتربية سليمة، فهذا ليس بالشئ الكافي بما أن الإنسان هو الأصل، وإلى جانب السلوك التربوي هناك سلوك آخر من المستحيل التغافل عنه ألا وهو السلوك السياسي، هذا الأخير الذي يدفع الإنسان للبحث عن حقوقه وكذا واجباته، فالإنسان هو الكيان الحقيقي في المجتمع لا يمكن أن يعيش في عزلة، وعليه روسو لم يكتف بتربية نموذجية له فقط بل وضعه في مجتمع مدني ليمارس حقوقه السياسية، فروسو يقر بأنه لا يوجد إختلاف كبير بين الإنسان الطبيعي الذي يعيش في حال الطبيعة، والإنسان الطبيعي الذي يعيش في حال المجتمع، وليس الفرد الذي يتزعزع بين أحضان الطبيعة همجي يقصى إلى الصحاري، بل همجي جعل ليقم بالمدن، ويعرف كيف يجد نفسه في ذلك الإجتماع من خلال ممارسته لحقوقه السياسية، فتكتمل نزعتة الإنسانية أو بالأحرى يتأهل للمواطنة في مجتمع مدني، فالتربية الطبيعية تأهيل للمواطنة الشخصية عند روسو . هذه الفكرة حتما تدفعنا لتساؤل مهم، كيف تكتمل مواطنة الإنسان وما حقيقتها الأكدية عند روسو ؟

المبحث الأول :العقد الاجتماعي والمواطنة

يعتبر جون جاك روسو من أكثر فلاسفة العصر الحديث الذين أعطوا لمفهوم المواطنة أبعادا واضحة وصريحة فالحرية والمساواة وحقوق الإنسان كانت ضمن اهتمامات روسو وكانت دعوته إلى الاصلاح الشامل والبحث عن هيئة عادلة تعيد تنظيم الحقوق والواجبات لتحقيق المساواة والعدالة وهو مضمون كتابه "العقد الاجتماعي" والذي من خلاله يوضح روسو توجهه الفكري السياسي في تشكيل الدولة والمواطنة موضحا أن السيادة للشعب وحده وهو مصدر السلطة ساعيا لتحقيق الديمقراطية فبدأ روسو عصر جديد للفلسفة السياسية .

فلعبت نظرية العقد الاجتماعي دورا هاما في الفلسفة السياسية، إبان القرنين السابع عشر والثامن عشر¹، فلقد رأى كل من بحث عن نشأة الدولة بأنها مثال للإجتماع الطبيعي

¹ فوزي ابو دياب: المفاهيم الحديثة للأنظمة والحياة السياسية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، دط، 1971، ص31.

والروح الإنسانية والشعور بتواجد الوحدة لدى الإنسان¹، ولعل أبرز أقطاب نظرية العقد الاجتماعي هو الفيلسوف "جون جاك روسو" إلى جانب "هوبز" و"جون لوك" حيث صاغ أفكاره حول الاجتماع البشري وكيفية انتقال الإنسان من الحالة الطبيعية إلى الحالة المدنية من خلال كتابة "العقد الاجتماعي" الذي ألهم العديد من المفكرين والفلاسفة وكان سببا في إندلاع الثورة الفرنسية لان الإنسان حسب روسو انتقل من مرحلته البدائية إلى المرحلة المدنية فأبرم عقدا وكانت السيادة للشعب الذي يختار حاكمه وعليه أن يكون خاضعا هو الآخر للقوانين والأنظمة.

فقد صور روسو الإنسان في حالته الأولى على الطبيعة صورة مثالية، والقانون الطبيعي هو الذي ينظم الحياة، وفي ظله يعيش في كنف الحرية، كما أن هذه الحالة يسودها الخير والسعادة والفضيلة لأن الطبيعة قد منحتة كل ما يريده فكيف له أن يتوحش على بني جنسه ويكون لهم ذنبا ضاريا، كل هذه الصفات اكتسبها الإنسان في حالته الطبيعية لكن هذا الشيء لم يخلق لديه الاقتناع الكبير، بل راح يبحث عن حياة أفضل لأنه مل الوحدة وأراد التعاون مع بني جنسه فأراد تغيير نمط حياته ولعل هذا يعود حسب ما ذكره روسو إلى فكرة الملكية التي برزت ببروز الأملاك والثروات، فالكل يسعى جاهدا للحصول عليها دون أدنى اهتمام بحقوق الغير .

ومع هذه الظروف وتغير نمط الحياة أصبح الإنسان يسعى إلى المساواة فظهرت التبعية والفوارق الفردية بعد أن كانت الحياة مليئة بالسعادة والخير، إزداد التنافس وتضارب المصالح فبرزت الأنانية بقوة، وعليه اتسعت الهوة بين الأفراد لظهور الملكية، فظهرت طبقة مالكة هي طبقة الأغنياء وطبقة الفقراء وهذا ما سماه روسو "أعمق خطة دخلت عقل الإنسان".²، زاعمين بذلك حفظ الحقوق وحماية الضعفاء وإقامة العدل، إذن الملكية أخلت بتوازن المجتمع، ولابد من الرجوع إلى الحرية والمساواة والاجتماع رغم فساده أصبح يشكل ظروف حتمية²... إنني

¹ - Morcel prelot: sociologie politique jurisprudence generale, dalloz , paris,1973. P P 30-32.

² - محمد عبد المعز نصر: في النظريات والنظم السياسية، دار النهضة العربية، بيروت، دط، 1981، ص ص 65-66.

أفترض بأن الناس قد وصلوا إلى ذلك الحد الذي تغلبت فيه العقبات التي تضر ببقائهم في حالة الطبيعة، بمقاومتها على القوى التي يستطيع كل فرد استعمالها من أجل الاستمرار في تلك الحالة، عندئذ في مكنة تلك الحالة البدائية أن تتوحد وكان الجنس البشري سيهلك لو لم يغير طريقة وجوده... " ¹.

وبعد ذلك الفساد وتدهور أوضاع المعيشة بين الأفراد تدفعهم مصالحهم المختلفة إلى الإتفاق على عقد اجتماعي يعتبر الأساس لتوفير الأمن والاستقرار، ويقوم هذا التعاقد بين الأفراد ويقتضي أن يصبح الفرد جزءا من هذا المجتمع أو بمعنى آخر يصبح عضوا في هذا الجسد الاجتماعي كما يسميه روسو وهنا تتحقق نظرية المواطنة، لأن المواطن قد تجسد كيانه في دولته التي ساهمت في تشكيلها، فالمواطنة شكل من أشكال التعاقد بين الفرد والدولة، وهذا يدل على أن المواطنة عند جون جاك روسو لا تتحقق إلا بتواجد الفرد في دولته، وأنه في حالته البدائية لا يقترن وجوده بالمواطنة، بل هذه الأخيرة تتجسد عند الفرد بعد تعاقد مع دولة نموذجية، فيقول روسو: "... إن عقد الإتحاد بين أفراد المجتمع ينطوي على التزام متبادل بين مجموع الأفراد وأن كل فرد كأنما يتعاقد مع نفسه وبالتالي يحمل وصف مزدوج وعضو في المجتمع صاحب السيادة، قبل الأفراد من المواطنين، وبوصفه مواطنا عضوا في الدولة قبل المجموع صاحب السيادة... " ² أي أن الفرد ينشد إلى دولته برابطة قوية هي رابطة التعاقد، التي تحقق المواطنة الشخصية.

ولو أننا تأملنا قول روسو يتضح لنا أن الفرد حين يبرم صيغة التعاقد بينه وبين مجتمعه يكون ذا صفتين أساسيتين أنه فرد من أفراد المجتمع له شخصية خاصة به . وبذاته وهذا الفرد عضوا في الجسد الذي خلق منه ذلك المجتمع الذي هو الدولة، أما عن الصيغة الثانية بما أنه صار عضوا في هذا الجسد _ الدولة _ يعد متعاقدا مع نفسه، وبما أنه ممثل لطرفي العقد عليه أن يتقيد بهذا العقد أي يجب عليه الخضوع للمقولة الأخلاقية واحترامه لمواطنته

¹ - جان جاك روسو: العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 48.

² - مصدر نفسه، ص 37.

الشخصية. ففي الدولة يظهر المواطن مشخصا بكل مقوماته الذاتية، وله مكان فيها يبدو وكأنه خلية في بناء هذا الجسد الكبير لا يعرف له ذاتية، فهو خيط من الخيوط الكثيرة المتلاحمة التي تكون منها هذا الثوب الذي هو الدولة، فالدولة كالنهر والمجتمع ماء المطر أو نقول هو ماء يجري في النهر إذن كل من المواطن والدولة مكمل للآخر، فلا تكتمل حقيقة المواطنة لدى المواطن بدون دولة ولا تتشكل دولة بدون تواجد المواطنين الذين هم لبها الحقيقي¹، فالمواطن حين يدخل مع الجماعة في عقد إجتماعي يتقيد بقيود كثيرة لا حصر لها من عادات وتقاليد وقوانين وضعية فهو مقيد بها راضيا أو كارها، لأنه عندما تنازل الأفراد كل منهم على حريته الطبيعية للجماعة الجديدة مقابل حصوله على حرية مدنية، مع كفالة المجتمع بالمساواة بين كل الأفراد أما الحاكم في دولة روسو أو في عقده المبرم ليس طرفا في العقد، وإنما هو وكيل للامة يحكم وفقا لإرادتها وليس وفقا لإرادته ولذلك يكون للجماعة حق عزله متى أرادت².

إذن روسو في تفسيره لنشأة الدولة يرجع الأمر الأول والأخير إلى الإرادة المشتركة لإفراد الجماعة بمعنى أن الأفراد اجتمعوا واتفقوا على إنشاء مجتمع سياسي يخضع لسلطة عليا، والدولة أولا وأخيرا وجدت نتيجة تعاقد أبرمته الجماعة، فالمواطن هو أساس نشأة الدولة، والسلطة تقام على أساس تعاقدية حيث ينوب الفرد عن المجموع في ممارسة السلطة، فاستخدم روسو فكرة العقد الاجتماعي في إقامة الحكم، والحاكم فيه مجرد وكيل ينوب عن المواطنين في ممارسة ظاهرة السيادة³.

ورغم كل هذا لم يكن روسو القطب الوحيد لنظرية العقد الاجتماعي فقد سبقه إلى ذلك كل من " هوبز " و " لوك " في القول بهذه الفكرة كأساس لنشأة الدولة. ويكون مصدر السلطة فيها أحد طرفي العقد نتيجة اتفاق مقصود أو اختياري طرفاه الأفراد البدائيين الذين خرجوا من

¹ عبد الكريم الخطيب: الخلافة والامامة، ديانة... وسياسة، دراسة مقارنة للحكم والحكومة في الاسلام، دار الفكر العربي، مصر، ط1، 1963، ص ص 38-39.

² علي عبد المعطي محمد: اتجاهات الفلسفة الحديثة، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ط1، 1993، ص 700.

³ عمار بوحوش: تطور النظريات والانظمة السياسية، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط1، 1984، ص 145.

حالة الطبيعة، وأسسوا مجتمعاً بواسطة التعاقد¹، لكن هؤلاء اختلفوا في بيان حالة الإنسان السابقة، كما اختلفوا في تحديد طرفي العقد حيث أن "هوبز" يرى أن حالة الإنسان قبل وجود الدولة كانت فوضى منبعها الأنانية، وهذا جعل الحياة كلها شقاء، فالعقد الذي يتم بين الأفراد لا يدخل فيه الحاكم الذي اختير، فالحاكم هنا يتصرف بلا قيد أو شرط فسلطته مطلقة تقابل بالولاء والطاعة، أما عن "لوك" فهو من أنصار الملكية المطلقة، لأن الإنسان كان يعيش متمتعاً بالحرية في ظل القانون الطبيعي، رغم هذا رغب في الخروج من نمط هذه المعيشة، وعنده الأفراد لم يتنازلوا في هذا العقد عن جميع حقوقهم بل على جزء منها فقط، ولا يجوز للحاكم أياً كان المساس بها².

بالمقارنة بين فكر كل من "لوك" و"هوبز" و"روسو" في مسألة نشأة الدولة التي بما تتحقق مواطنة الإنسان. نقول بأن روسو وقف الموقف الواسطي بينهم، فجمع بين السلطة المطلقة وإرادة الشعب، فالمواطن في دولة "هوبز" و"لوك" لا تتحقق مواظنته بل هي مفقودة في عالمهما. لأن المواطن لا يمارس حقوقه السياسية بوجود سلطة مطلقة للحاكم، ولا يتمتع بها إن لم تتحقق لديه حماية كافية من طرف الحاكم. أما في دولة "جون جاك روسو" فالمواطنة مرتبطة بتواجد الموطن فيها، فالمواطنة ما هي إلا شكل من أشكال التعاقد بين الفرد والدولة إن مواطنة الفرد لا تكتمل عند تواجده في الدولة فقط ووضعيتها فيها، بل له وظائف يعتقد روسو فيها كمال المواطنة القومية، بحيث تكون السيادة مطلقة لدى كل مواطن في موطنه، ولا يمكن التنازل عنها، وللمواطنين كامل الإرادة في سن القوانين ومعنى هذا أن الحكومة ليس لها الحق في إصدار القوانين، وبهذا تكتمل وظيفة المواطنة لدى مواطي الدولة.

لعلنا إذا ما تأملنا حقيقة هذا العقد الذي يحقق المواطن خلاله أشياء أو بالأحرى كاد أن يفقدها أثناء تواجده على فطرته الأولى، فهو لم يحقق مواظنته في حالته البدائية التي غشت عليها الطبيعة فقط. فعليه إذا أن يحمد دوماً تلك اللحظة السعيدة لحظة العقد الاجتماعي

¹ - يحيى احمد الكعكي: مقدمة في علم السياسة، مرجع سابق، ص 92.

² - محمد كامل ليلة: النظم السياسية، مرجع سابق، ص 208.

الذي انتشلته من مخالب الطبيعة التي عاش وولد فيها، والتي حولت ذلك الكائن ضيق الأفق إلى كائن ذكي ، بل حولته من أسوأ حالة إلى مواطن سيذا على نفسه وفي دولته . وتبدو ظاهرة الدولة كأساس لا بديل له، ولكن كما يقال ماذا يمكن أن يكون موضوع عالم يلقب نفسه بالدولة، إنه لم يكن يصحبه عالم السياسية¹، فالجسد السياسي بعد الجسد الاجتماعي حتما. إلا أن الفكر السياسي عند روسو أهم نقطة في تغيير نمط الحياة الإنسانية، فيجب جعل البشر مواطنون قبل أن يكون في الإمكان جعلهم أناسا، ولكن لكي يكونوا مواطنين يجب على الحكومات توفير الحرية لهم في حدود القانون، والعمل على تحقيق الرفاهية المادية والقضاء على التفاوتات الفردية لكي تكون وضعية المواطنة مكتملة لديهم فهي تمنح صاحبها الحقوق السياسية وممارسته لها في دولته التي أصبحت كيانه بعد التعاقد.

بهذه النظرة وهذا التعايش، يصبح كل إنسان بطبيعته يحب الحرية ويكره العبودية، فقد ولد ليأمر لا ليطيع . وهذا الشيء ألفه منذ ولادته فقد منحه إياه الطبيعة وعلى هذا الأساس فإن السلطة التي يمارسها الحكام أيا كانت مصدرها، ومن ثم فإن الحكام مقيدون بالهدف الذي يحدده المواطنون، أي المحافظة على أمنهم وحريتهم²، فالمصلحة والواجب يلزم الطرفين المتعاقدين بالمساعدة المتبادلة، وهذه المساعدة تتمثل في جعل المواطنين يشاركون في الحياة السياسية بإصدار القوانين لتتحقق المواطنة لديهم وممارستهم لها، أي يحققونها كوظيفة ووضعية، وظيفتهم هي المشاركة في الحياة السياسية ووضعيتهم هي السيادة المطلقة، فهي نظرية المواطنة التي سعى روسو لها لكي يحقق نظام سياسي معين يصلح لفرنسا خاصة، وهي الفكرة التي أثارت الشعوب في فرنسا فيما بعد فنشبت الثورة وأصبح الكل يسعى جاهدا لتحقيق مواطنته.

¹ -Morcel prelot: sociologie politique .P09.

² - عبد الكريم أحمد: دراسات في النظرية السياسية الحديثة، قسم البحوث والدراسات الاجتماعية والاقتصادية، دط، 1973، ص ص 78-80.

إن المواطن عند "جون جاك روسو" يمارس أو يعايش وجهتين هما وضعية المواطنة ووظيفة المواطنة، فوضعيته هي معرفته لكامل حقوقه من خلال العلاقات الفردية، وعلاقته بالمجتمع الذي هو جزء منه، ومقابل ذلك يحقق وظيفته من خلال ممارسته لحقوقه السياسية في سن القوانين وتشريع المبادئ...¹، إذ لما كانت الدولة أي الجسد السياسي ليست شخصا حقيقيا فإنه - أي الفرد - يريد أن يتمتع بحقوق المواطن دون أن يقوم بواجبات الرعية...²، فالفرد يتمتع بمواطنته الشخصية وهو يعيش في كنف دولته التي تسعى لحمايته وتحقيق مطالبه وإن خرج الحاكم عن إطار متطلبات مواطني الدولة فليس له الحق في الحكم ورعاية الشؤون من أجل رؤية المواطن يعيش حياة الحرية والسيادة المطلقة، فهي علاقة مفارقة بين الوطن والمواطن مفادها تحقيق المواطنة، إلا أن هذه النظرية - العقد الاجتماعي لم تسلم من ناقدتها فلخصوا جملة إنتقاداتهم البدائية في كونها غير حقيقية ولا سند لها في التاريخ، لأن نظرية العقد الاجتماعي عديمة الفائدة، فالمجتمع السياسي لا يتصور بغير سلطة حاكمة تنظمه وتضع القواعد له، فكما يقول الكاتب الروماني شيشرون: "...لو أن جماعة كانت كلها قادة أيضا مثل هانيبال ونابليون، فمن الأوفق ألا يحكموا جميعا في وقت واحد..."³، وعليه فالنظام السياسي يفترض حتما وجود سلطة تتولى إدارة الجماعة وسير شؤونها ونفس النقد قدمه أحد معاصري روسو وهو الفيلسوف الفرنسي لابي مابلي LABBY MABLY "1709-1781" م بأن نظرية العقد الاجتماعي قد نالت شهرة في عصرها لكن ما لبثت حتى تراجعت لنفس الأسباب⁴.

لكن رغم الكثير من الإنتقادات التي وجهت لهذه النظرية، إلا أنها تحتوي ولا شك على حقيقة أساسية كونها نهضت مع الشعوب، وقد ذكر الكثيرون أن الإنسانية ستذكر لنظرية العقد الاجتماعي فضلها الذي لا ينس في مد الثورة الفرنسية وإسترداد حقوق المواطنين التي

¹ - Michel coz: jean jack rousseau, op-cit, p167.

² - جان جاك روسو: العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص ص 45-46.

³ - فوزي ابو دياب: المفاهيم الحديثة للأنظمة والحياة السياسية، مرجع سابق، ص 37.

⁴ - Morcel prelot: histoire des idees politique .P417.

سلبت من جراء الظلم والحكم الإستبدادي، وإقامة الحكومة القانونية. ونذكر من بين المؤيدين لهذه النظرية رجل من رجال الثورة الفرنسية الذي أعطى مكانة لروسو وهو "بيجو" "bujot". عاش في القرن الثامن عشر، فقد قال: "لو قدر لروسو أن يعيش حتى يشهد الثورة لكان مصيره الحتمي هو الإعدام...¹، فيكفي أن روسو وضع الفرد في مكانة ولد من أجلها، ورد له حق المواطنة في دولته.

المبحث الثاني: الإرادة العامة والسلطة المطلقة

لقد كانت الإرادة العامة في فكر روسو السياسي هي الأكثر تميزاً، واتجاه هذا المعنى ليس من المحقق إذا كان روسو هو الذي اخترع التعبير أو سبقه إليه غيره من المفكرين ولكن روسو بالتأكيد جعله تعبيراً خاصاً حيث يرى بأن الإرادة العامة للشخصية المتحدة، أو التشابه العضوي لأي جماعة إجتماعية²، "...فالشخصية السياسية إذا أيضاً كائن معنوي يمتلك الإرادة وهذه الإرادة العامة التي تمثل دائماً إلى وقاية ورفاهية المجموع وكل جزء منه، وتكون مصدر القوانين، تشكل لكل أعضاء الدولة في علاقتهم بعضهم بعض وفي علاقتهم معها، القاعدة لما يكون عدلاً أو غير عدل...³، إن الميل لتكوين مجتمعات سمة عامة، فأينما يكن للأفراد مصلحة مشتركة، فإنهم يكونون مجتمعات دائماً أو مؤقتاً وكل مجتمع له إرادة عامة تنظم سلوك أعضائه، حتى المجتمع البدائي على حالته الطبيعية يرى روسو في قانونه الطبيعي الإرادة العامة "..... والواقع أن لكل فرد بوصفه إنسان إرادة خاصة مختلفة مناقضة مع الإرادة العامة التي يسهم فيها باعتباره مواطناً...⁴

ويذكر روسو أن العقد الذي تم بين أفراد الجماعة لإخراج مواطنين مثاليين يتمتعون بحق المواطنة في دولتهم، تتولد عنهم إرادة عامة وهي إرادة المجموع أو إرادة الأمة صاحبة السلطة، فكل مواطن على حدى له إرادة خاصة لكن لا تلبث هاته الإرادات الشخصية حتى

¹ - Michel coz: jean jack rousseau, op-cit, p160.

² - جورج سباين: تطور الفكر السياسي، ج4، ص 789.

³ - جان جاك روسو: العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص85.

⁴ - جورج سباين، مرجع سابق، 790.

تتجمع فتشكل مجموع الإرادة العامة وهي إرادة مواطني الدولة أصحاب السيادة المطلقة، وهذه الفكرة التي تمثل فكر روسو السياسي ألا وهي الإرادة العامة تتميز بأنها مظهر لسيادة المجتمع وهي التي تعبر عن تلك السيادة ويترتب على ذلك أن المواطنين في المجتمع هم أصحاب السيادة والحاكم لا يستطيع التصرف في هذه السيادة، فهو أيا كان ما هو إلا خادما للمواطنين ووكيلا عنهم باسمهم، وإرادته وبقائه في الحكم مرهون برضاهم عنه¹.

إذن حسب رأي روسو يمارس الأفراد بإعتبارهم مواطنين سيادتهم جماعيا، فالحكومة تخضع للمواطنين بصفتهم هيئة عامة، فالمواطن يحمل صفتين فهو من جهة صاحب السيادة لأن إرادته تتحد مع المجموع فتكون الإرادة العامة ومن جهة أخرى فهو محكوم لأنه يخضع لتلك الإرادة الكلية والإرادة العامة تحقق الحرية التامة على المستوى الفردي والحرية ماهي إلا تعبيرا خالصا عن مدى مواطنة الفرد²، وإذا كانت الإرادة العامة تعهد كل شيء إلى هيئة خاصة تدير شؤون الحكم وفقا لإرادتها وبإمكان الإرادة العامة إقالة هذه الهيئة متى رأت فيها جنوحا اتجاه مصالح المواطنين مادامت الحرية حق من حقوقه المعهودة في موطنه. فالحكم الجيد ما سادت فيه الإرادة العامة بحيث لا يمنح الشعب ممثليه حق سن القوانين، وعليه يحصل كل مواطن على الحرية المدنية إضافة إلى تلك الحرية الأخلاقية التي تجعل الإنسان سيد نفسه، وتكون طاعة المواطنين فقط للقانون الذي وضعوه بأنفسهم .

لكن ما حقيقة القانون الذي يتحدث عنه روسو في إطار التعاقد السياسي؟

إن القانون ناتج عن إرادة الشعب " ... حيث يوضع القانون، فإنه لا يضع في إعتباره الأشخاص وأفعالهم الخاصة، ولكنه يعبر عن الجميع وعن الأفعال المحددة، وقد يحدد القانون حقوقا ولكنه لا يمنحها لفرد محدد بالذات، وقد يصنف الناس طبقا لبعض الكيفيات ولكنه لا يدرجهم في طبقات متفاوتة، وقد يقيم حكومة ملكية وراثية، ولكنه لا يختار ملكا ولا

¹ - محمد كامل ليل: النظم السياسية، مرجع سابق، ص 210.

² - مرجع نفسه، ص 585.

يحدد عائلة مالكة...¹، وعليه يكفي أن نقول بأن القانون أمر حتمي "... فلا ننكر أن كل عدالة تأتي من الله وهو وحده منبعها، لكننا لو كنا نعرف أن ننتلقاها من الخالق لما كانت بنا حاجة لا لحكومة، ولا لقوانين، لا بد إذن من إتفاقات ومن قوانين لربط الحقوق بالواجبات ورد العدالة للإنطباق مع هدفها... وعندما أقول أن هدف القوانين يكون عاما دائما فإنني أعني أن القانون ينظر إلى الرعايا كهيئة وإلى الأفعال على أنها مجردة.... هكذا فالقانون... ينشئ طبقات عديدة من المواطنين بل ويحدد الصفات التي تخول الأفراد الإنتماء لهذه الطبقات...² إذن القانون هو صورة من صور تحقيق مواطنة الفرد، وسن القوانين معناه مدى إنتماء المواطن وفعاليته في مجتمعه، ولا يمكن للإرادة العامة أو صاحب السيادة العامة أن يحقق الوظيفة المنوطة له أو يكتسب مواظنته إلا إذا سن وشرع القوانين في الدولة، وإلا سادت الفوضى وحل الاستبداد .

غير أن فكرة الإرادة العامة التي تميز فكر روسو السياسي لم تسلم من النقد، فيكفي أنها وصفت بالإستبداد الفردي لأن هناك تجليل زائد لحرية وحقوقه ومن بين من قدموا نقد لفكرة الإرادة العامة الكثير من معاصري روسو وعلى رأسهم الفيلسوف الفرنسي كوندورسيه "condorcet" "1773 - 1794" م . وهو أحد المحللين السياسيين الذي قال بأن الإرادة العامة معترف بها لكنها ليس حق للأمة فهي الغاية العامة، وهي الأقلية التي نابت عن المجموع عن طريق الإنتخاب، أما أن تكون السلطة لكل فهو الأمر المستحيل، والذي سيجلب الكثير من الفوضى ونوع من التهكم على الحكام.³

لكن رغم الإنتقادات والرفض للإرادة العامة، إلا أن روسو يرى فيها حقا من حقوق المواطن، ومنبعا لحرية فمتى كانت هناك ارادة عامة وسلطة مطلقة للمواطنين جميعا

¹ - جان جاك روسو: العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص79.

² - مصدر نفسه، ص71.

³ - Morcel prelot: histoire des idees politique, pp 409-419.

كانت المواطنة حق من حقوقهم، فكل مواطن له حق الممارسة السياسية والإرادة العامة ماهي إلا مدلول علاقة المواطن بوطنه .

المبحث الثالث: أشكال الحكومة وتحقيق الديمقراطية:

بعد تشكل مواطنة الفرد المتعاقد وممارسته للسلطة والسيادة، يتكلم روسو عن الحكومة التي شكلت مسألة هامة عنده، حين خصص لها الجزء الأكبر والأهم والأعقد من كتابه العقد الاجتماعي حيث تكلم عنها وعن أشكالها في الجزء الثالث منه، محاولاً تبيان دور الحكومة بالنسبة للمواطن، لكن قبل الحديث عن هذا الدور والتطرق إلى مختلف هذه الأشكال، نقول كما قال روسو في مدخل هذا الجزء: " ... قبل الكلام على مختلف أشكال الحكومة سنحاول تحديد المعنى الدقيق لهذه الكلمة (حكومة)، التي مازالت - كما يذكر - حتى الآن لم تشرح الشرح الوافي "، فأخذ على عاتقه القيام بهذه المهمة معتمداً على الإيضاح، ومن سبل ذلك التمثيل، فإذا كان لابد للفعل الحر من إرادة وقوة فإن للهيئة السياسية كذلك الإرادة والقوة، الأولى تمثلها السلطة التشريعية المشرعة للقوانين والتي تكون من حق المجموع المتعاقد أي المواطنين الذين أصبحت لهم إرادة وسيادة، والثانية القوة تمثلها السلطة التنفيذية التي تعمل على تنفيذ القوانين، وهذه هي مهمة الحكومة التي يعرفها روسو على أنها " ..هيئة وسيطة بين الرعايا وصاحب السيادة، من أجل الإتصال المتبادل بينهما مكلفة بتنفيذ القوانين والمحافظة على الحرية المدنية والسياسية"¹، فهي هيئة وسيطة بين المواطنين وبين الهيئة المشرعة لتأمين الإتصال بينهما ومشاركة المواطن في تسيير شؤون الدولة والمحافظة على حقوقه خاصة الحرية بنوعها .

فمواطنة الفرد تتجسد أكثر من خلال هذه الهيئة التي تحمي حقه في الحرية، هذه الأخيرة التي تعتبر إحدى المبادئ الأساسية التي نادى بها الثورة الفرنسية ونادى بها روسو خاصة حرية التعبير والرأي والمناقشة التي كانت مكبوتة في فرنسا تحت ضغط الرقابة، وهذا النداء تجسد أكثر خلال مهمة الحكومة اتجاه المواطن، التي تكفل حمايته والدفاع عن حقوقه ودليل

¹ - جان جاك روسو، العقد الاجتماعي، ص ص 103-106.

مواطنته، بل ومن أجل ذلك يذهب إلى ماذهب إليه مونتيسكيو في نظرية فصل السلطات، ولنفس الأسباب من حماية للمواطن والدفاع عن حقوقه كحد واق من الإستبداد السياسي، وضمانة للحريات الفردية، لكن يبقى هذا الفصل غير تام من أجل التعاون والسير الحسن لحياة صاحب المواطنة¹، فيجعل من الحكومة أداة لإرادته التي هي إرادة المجموع أو الإرادة العامة سخرت لخدمتها بل تعمل بكل طاعة لها وتضحي من أجلها² وممارستها للحكم بمثابة وظيفة تقوم بها كواجب توكل لها من طرف المواطنين، فصاحب المواطنة عند روسو هو السيد، ومواطنته تكفل له السيادة وتحديد الحكم وتعديله وإسترداده متى شاء³، فالحكام ماهم إلا خدمه ومندوبيه وليسوا أبدا سادة.

إن مصلحة صاحب المواطنة وحفظ حقوقه وواجباته، تجعل روسو يقر بأشكال للحكومة لا بشكل واحد، فيجعلها ثلاثة أشكال على حسب عدد أعضائها المؤلفين لها فرأى جان جاك شوفالييه أن روسو: "يتناول مسألة أشكال الحكم من منظور مختلف كلياً عن سابقه العديدين البارزين"⁴، مستخدماً الكلمات القديمة المألوفة منذ "هيروdotس"، "أفلاطون" و"أرسطو"، مروراً "بيودان" و"منتسكيو" من ديمقراطية أرستقراطية وملكية⁵، مراعيًا في هذا التقسيم صلاحية كل حكومة من أجل صلاح المواطن، فيجعل الحكومة الديمقراطية حكومة الشعب كله أو الجزء الأكبر منه، لا تصلح إلا في الدول الصغرى أي—ن يسهل إجتماع المواطنين ومعرفة كل مواطن مواطنيه، أرستقراطية تصلح في الدول المتوسطة أين يكون الحكم للمجموعة الأقل من الشعب على عكس الملكية التي تكون في الدول الكبرى لأن الحكم في يد شخص واحد وهذه الشروط في مصلحة المواطن وحقوقه لا سيما السياسية وإن الشرح والتحليل الذي إتخذه روسو على عاتقه، جعله يخصص لكل شكل من هذه الأشكال عرضاً خاصاً بها فيتناول :

¹ - محمد كامل ليلة: النظم السياسية، ص 501.

² - Morcel prelot: sociologie politique, p 414.

³ - جان جاك روسو، العقد الاجتماعي، ص 106.

⁴ - جان جاك شوفالييه: تاريخ الفكر السياسي، ص 506.

⁵ - مرجع نفسه، ص 508.

أ- الشكل الأول : الحكومة الديمقراطية

التي تتحد فيها السلطان التشريعية والتنفيذية إذ لا يوجد من يعرف تنفيذ القانون أحسن من واضعه، إلا أن هذا الشكل لا يناسب المواطنين، لم ولن يوجد أبداً، فكمال هذا الشكل كمال بالنسبة لشعب من الآلهة كما يرى روسو، أما بالنسبة للبشر فيتهمه -الحكم - روسو بعدم الكفاية والنقص إذ أن إتحاد السلطتين سيشكل حكومة بلا حكم، وبغض النظر عن هذا لا يمكن تصور بقاء المواطنين مجتمعين على الدوام من أجل التفرغ للشؤون العامة، فإذا كان . من حقه الممارسة السياسية فإن من حقه كذلك التفرغ لشؤونه الخاصة، كما أن في هذا الشكل تتوفر فيه من الظروف ما يسمح لأعضاء الحكومة من الاستحواذ على السلطة وهذا دليل آخر على خوف روسو والدفاع على مصلحة وحقوق المواطن ومن الصعب جمع شروطه إلا في دولة صغيرة جداً شعبها سلس القيادة وكذا البساطة الكبيرة في الأخلاق والطباع والتساوي في المراتب والثروات وقلة الترف والكثير من اليقظة والشجاعة لدى كل مواطن، وزيادة على ذلك على أن لا يكون الحكم موضوعاً للصراعات الداخلية وتجنب الحروب الأهلية والإضطرابات الداخلية المعرضة لها هذه الحكومة، يقر روسو بعدم صلاحيتها للبشر هروباً من تحارب المواطنين وحفاظاً على أمنهم وسلمهم كحق من حقوق الفرد التي تستوجبها مواطنته¹

وبعيداً عن كتاب العقد الإجتماعي فإن روسو قد كتب رسالة مؤرخة في 31/01/1767م موجهة إلى إيغرنوا "Ivernois" . يقول له فيها : "لقد كان بإمكانك أن ترى ... أنني لم أوافق أبداً في العقد الاجتماعي على الحكم الديمقراطي"² لأن الحكم الديمقراطي فيه من العيوب ما يهدد سلامة وأمن المواطن.

¹ - جان جاك روسو، العقد الاجتماعي، ص ص 118-120.

² - جان جاك شوفالييه، تاريخ الفكر السياسي، ص 509.

ب - الشكل الثاني: الحكومة الأرستقراطية

وفيها تتمايز الحكومة عن صاحب السيادة هذا الشكل من الحكومة كما يقول روسو ليس حديث العهد، بل كان حاضرا في المجتمعات الأولى حين كان رؤساء العائلات يتداولون الشؤون العامة فيما بينهم، وهذه أول أنواع الأرستقراطية أي الطبيعية التي لا تصلح إلا للشعوب البدائية، أين كانت المواطنة على الرغم مما تكفله من حقوق وواجبات إلا أنها حقوقا وواجبات أقل بكثير مما تطمح له الشعوب اليوم، وهناك النوع الثاني وهو الأرستقراطية الانتخابية التي يتم فيها إختيار الحكام بالإنخاب أفضل أشكال الحكومة، ذلك أنها الأرستقراطية بمعناها الحقيقي¹، التي تحقق حقوق الفرد وواجباته، وأولها حق الإقتراع أو الإنتخاب، الذي يجعل من الإستقامة والإدراك والخبرة ضمانات أخرى لوجود حكومة رشيدة بل ضمانات لحقوق الأفراد، أما إذا إنتقل الحكم من الآباء إلى الأبناء أصبحت ارستقراطية وراثية، وهي أسوأ الحكومات جميعا، لأن حقوق الفرد فيها محروم منها، إذ أن الحكم فيها محتكر لا حرية للمواطن في إختيار الحكام وإبداء رأيه فهو محروم من حق الإقتراع². وباختصار فإن أفضل النظم وأقربها إلى الشكل الطبيعي، هي الأرستقراطية الانتخابية، أين تكون حرية المواطن في إختيار حكامه بالإقتراع كحق من حقوقه .

ج- الشكل الثالث : الحكومة الملكية

التي تجتمع فيها السلطة في يد شخص طبيعي له الحق في استعمالها، لكن طبقا للقوانين التي تصدر عن مصادقة المواطنين، فهم السادة حيث يصورها روسو بصورة "أرخميدس" وهو جالس بهدوء على الشاطئ، يجذب مركبا ضخما فيمثل بذلك ماهرا يحكم من مكتبه دولته الشاسعة يحرك كل شيء وهو يبدو ساكنا.

لكن هل هذا يعني أن روسو ملكي ؟

¹ - جان جاك روسو، العقد الاجتماعي، ص 122.

² - رومان رولان: افكار روسو الحية، تر: محمود يوسف الزايد، مراجعة كمال اليازجي، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، ص74، 1961.

لا لأن روسو سيوجه نقدا لاذعا ضد الملكية أساسه تدخل الإرادة الخاصة، وفي هذا تهديد لحقوق المواطنين، لأن الإرادة الخاصة في هذا الشكل لها السلطة الأوسع، وقد تتحول إلى هدم للدولة ولمواطنة الفرد وهذا ما لا يسمح به روسو، بدل السعي إلى سعادتها وهنائها حين تغلب المصلحة الشخصية على المصلحة العامة، ويسير كل شيء إلى أي هدف إلا السعادة العامة¹، التي هي حق من حقوق المواطن في الدولة، بل يذهب روسو إلى إنتقاد الفقيه الهولندي غروتوس (1583-1645) م، دافعا عن حقوق المواطن السياسية إذ كان هذا الفقيه من المؤيدين للملكية، ومعارضاً لجعل السلطة في يد الرعايا المحكومين ذلك أن الرعايا في رأيه يتنازلون عنها للملك²، وبالنسبة لوارثيه هذا النوع من الحكم يبرره روسو بهدف تجنب النزاعات حول الحكم للحفاظ على هدوء وأمن وسلامة المواطن، حيث يفضل هدوءاً ظاهرياً وحكاماً غير أكفاء على النزاع في إختيار الملوك الصالحين، رغم أن هذا التوارث يجعل الحكومة غير ثابتة، إلا أن روسو يرى أنه: "علينا أن نتحمل الحكم السيئ عندما نبثلى به فهو عقاب من الله"³، فالإيمان بالقضاء والقدر واجب من واجبات المواطن، لأنه إيمان بالله وبالدين الذي تكفله الدولة إلا أننا إذا تأملنا جيدا وجدنا أن نقده هذا موجها إلى الملكية اللاشعرية، التي يسيطر فيها الملك وتغيب فيها كل حقوق الفرد السياسية بينما يقر بالملكية الشرعية التي كما قال "تكون بحد ذاتها جمهورية" تلك التي تكون السيادة فيها للمواطنين والملك المؤتمن الوحيد على هذه السيادة.

د- الحكومة المختلطة:

بالإضافة إلى هذه الأشكال الثلاثة أو الحكومات البسيطة كما يسميها روسو، فإنه يتحدث كذلك عن الحكومة المختلطة من أجل حماية المواطن وحقوقه وواجباته والتي تنتشأ عندما تكون علاقة الأمير، أو الحاكم بصاحب السيادة أكبر من علاقته بالشعب وفي هذا

¹ - جان جاك روسو، العقد الاجتماعي، ص ص 127-129.

² - ابو اليزيد علي الميث: النظم السياسية والحريات العامة، مرجع سابق، ص 111.

³ - جان جاك روسو، العقد الاجتماعي، ص ص 132-188.

خلل، ولمعالجة هذا الخلل يقسم الحكم فنشأ عنه إقامة حكام وسطاء بين الحاكم والشعب أو ما تسمى بالحكومة المتوسطة¹، فالحكومة المختلطة هي الحل الذي يلجأ إليه روسو عندما تهدد مصلحة وحقوق المواطنين إلا أن روسو يفضل الحكومة البسيطة على الحكومة المختلطة، لأنها بسيطة، هذا هو جواب روسو .

لكن أي الأشكال البسيطة أفضل ؟ وأين نجد ضمن كل ما ذكرناه الحكم الأفضل الذي يكفل حقوق المواطن وواجباته ————— ؟ لقد قرأنا مديحا للأرستقراطية الانتخابية، هل هذه هي الكلمة الأخيرة لروسو ؟

الحقيقة أنه ليس هناك كلمة أخيرة في هذا الموضوع، فنحن حين نبحث عن الحكومة الصالحة، نطرح سؤالاً كما يقول روسو لا حل له، أما إذا تساءلنا عن العلامة التي يمكننا بها معرفة كون المواطنين يحكمون حكماً صالحاً أو سيئاً، فإن السؤال سيكون ذا منحنى آخر ويصبح ممكن الحل، وللإجابة عليه يتساءل روسو عن الغاية من الإتحاد السياسي، فيجد أنها المحافظة على أعضائه (المواطنين) ورخائهم (فغاية الإتحاد هو حماية الفرد وتحقيق لحقوقه وواجباته السياسية، ومن دلائل هذا تزايد عددهم، فحين تتوفر الظروف الجيدة تكون الحكومة التي يتكاثر فيها المواطنون، ويعمرون البلاد دون وسائل خارجية أو تجنيس للأجانب، أو إقامة مستعمرات، هي الأفضل، والحكومة التي يهلك شعبها ويقل تكون الأسوأ².

فالحكومة الأصلح والأفضل بإختصار هي التي تحقق فيها حقوق الفرد وواجباته من سعادة وأمن وتكاثر ومساهمة في شؤون الدولة فدليل صلاحية حكومة على أخرى تظهر برخاء وتكاثر المواطنين وسعادتهم، وهذه هي المعايير الرئيسية التي يرى من خلالها روسو صلاح الحكومة، وهذه أكبر أهمية يوليها روسو لصاحب المواطنة.

¹ - جان جاك روسو، العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص ص 131-132.

² - مصدر نفسه، ص 140.

وشكل الحكومة لا يصلح لكل زمان ومكان، فروسو يؤمن بموت الهيئة السياسية، بل هو النهاية الحتمية للحكومات إذ أن الأبدية شيء مستحيل والفناء شيء وارد، وسببه دائما الإرادة الخاصة التي ينظرها روسو على أنها دائما وبلا إنقطاع ضد الإرادة العامة¹، وسيحدث عاجلا أم آجلا أن يضطهد الحاكم صاحب السيادة، ويلغي الإتفاق الاجتماعي وبه تلغى وتفقد مواطنة الفرد أي حقوقه وواجباته ويعود إلى حياة الفردانية، وهذا يحدث حين تفسد الحكومة وذلك بطريقتين :

أ- عندما تضغط الحكومة نفسها فتتقلص وتنقل من ديمقراطية إلى أرسقراطية، إلى الملكية، فهي بطبيعتها تنتزع إلى ذلك .

ب- أو عندما تتحل الدولة، وذلك على منوالين :عندما تتكلمش الدولة بإغتصاب الحاكم للسلطة السيادية، والكف عن الحكم بالقوانين، فتتشكل دولة أخرى مكونة من أعضاء الحكومة، ومجرد حدوث ذلك يلغى العقد الاجتماعي الذي يحقق المواطنة،وعندئذ تلغى الأخرى كما يحدث ذلك عندما يغتصب كل عضو من الحكومة منفردا السلطة التي ينبغي أن تمارس كهيئة، فتحدث الفوضى وتتحل الحكومة الديمقراطية إلى غوغاء (صعاليك)، والأرسقراطية إلى أوليغارشية (إنتهازيين)، والملكية إلى طغيان (استبداد)². وهذا ما يحاول روسو تجنبه من خلال كل أرائه لإطالة عمر الدولة ومواطنة الفرد فيها ولكنه مؤمن ببقائها.

في هذا التحقيق تحقيق لمواطنة الفرد، حين دعى روسو إلى عقد إجتماعي، يتخلى فيه كل فرد عن حقوقه الشخصية لا لفرد معين بل للمجموع، وفي مقابل ذلك سيكتسب حقوقا أخرى عند إنتمائه لهذه الجماعة وتعاقده، كالإرادة والسيادة التي ينفرد كما دون الحكومة التي تربط مجموع المواطنين بصاحب السيادة، فصاحب السيادة هو الأمر النهائي . وإذا كان هناك جور سياسي فلا مكان له في هذا المجتمع، لأنه ليس المعقول وقوع الجور من المواطن على نفسه، وفي أفكار روسو حول سيادة الشعب وديمقراطيته، أفكار لـ"هوبز" من خلال فكرة

¹ - رومان رولان: افكار روسو الحية، مرجع سابق، ص 77.

² - جان جاك روسو، العقد الاجتماعي، ص ص 141-142.

السيادة المطلقة، وأخرى لـ"لوك" من خلال فكرة سلطة الشعب ليجمعهما في نظرية واحد هي السيادة المطلقة للشعب أو ما نسميه الديمقراطية¹. وإذا كان قد أقر بضرورة الحكومة بغض النظر عن شكلها فإنها الحكومة التي تحكم لمصلحة المواطن وتحافظ على حقوقه من حرية سياسية ومدنية، تعمل لسعادته ورخائه وغيرها من الحقوق وإن تحقق الديمقراطية يظهر جليا أولا في فكرة التعاقد في حد ذاتها عند روسو، وهنا تتشكل الهيئة السياسية وانتماء الفرد، ليجعل من أصحاب المواطنة كل شيء في زمان كان يظن أن الحكومة كل شيء، والمواطن ليس بشيء².

فجعل المواطنة الوسيلة التي تحقق سيادة الفرد، وتجعله صاحب السلطة ومصدرها وهذه هي الديمقراطية بعينها، عند ممارسة الفرد حقوقه السياسية، وما طريقة هذه الممارسة إلا دليل على هذه الديمقراطية، التي لا تتخذ شكلا واحدا وإنما تظهر في صور متعددة، فكل شعب يختار النظام الذي يلائمه ويحقق أهدافه، وهذا حق من حقوق المواطن في اختيار نظام الحكم وتوليه لإدارة شؤونه بنفسه، فيطلق على هذه الحالة اسم الديمقراطية المباشرة ويحق له إنتخاب نواب عنه يترك لهم مقاليد الأمور، وهذا النظام يعرف باسم الديمقراطية النيابية، وقد يكون النائب شخص واحد وعندئذ تسمى الديمقراطية الشبه مباشرة.

فأعتبر روسو نصير المواطن والديمقراطية الشعبية التي رأى فيها الصورة الحقيقية والترجمة الصحيحة المبدأ سيادة المواطن، بل إنها النتيجة المنطقية لهذه الديمقراطية التي لا نقصد بها الحكومة الديمقراطية التي انتقدها روسو، بل ورفضها إنما نقصد بما ديمقراطية نابعة من كنه العقد، بغض النظر عن نوع الحكم ففي كل أنواع وأشكال الحكومة توجد الديمقراطية التي تظهر أساسا في سيادة الشعب وقدرة المواطن على إلغاء تلك الحكومة، وإذا كان روسو يؤيد ويدافع عن الديمقراطية فهو يدافع عن حقوق المواطن وواجباته ولا سيما في زمنه أين كانت السيطرة مطبقة على الشعب الذي لا يملك أي حق في المشاركة السياسية فأراء روسو عادت

¹ يحيى احمد الكعكي: مقدمة في علم السياسة، مرجع سابق، ص ص 41-100.

² محمد عطية الأبراشي: جان جاك روسو واراؤه في الإصلاح الاجتماعي، مرجع سابق، ص ص 98-112.

ثورة ضد تلك الأوضاع المزرية، وفي نقده الأوضاع فرنسا نقد حتى لما كان سائدا في المدن الإغريقية القديمة، حيث كان المواطنون الأحرار هم من عمار السياسية إلا أن هذا التطبيق صوري في نظر روسو فقد كانوا في الواقع أرسقراطيين نظرا لقيام نظام الرق وحرمان الرقيق من الحقوق السياسية، وهذا ما لاحظناه عند أفلاطون سابقا، فرسو يؤكد على الحقوق السياسية وعدم إقصاء أي أحد من حق المواطنة، حيث يمارس حقوقه السياسية التي هي أساس ودليل الإلتماء السياسي، حين تجتمع في صورة جمعية مع غيره من المواطنين في مكان فسيح ويقوم رئيس السلطة التنفيذية بعرض وشرح المسائل الهامة لكافة المواطنين المجتمعين¹، وممارسة المواطن لحقوقه السياسية هي مصدر سيادته الي هي أساس الديمقراطية، إذ كثيرا ما يقال أن الديمقراطية هي سيادة الشعب، يعبر عنها المواطن في ممارسته السياسية، وفيها يتساوى الأفراد في الحقوق ورغم اختلافهم من حيث الفطنة، الفضيلة، المعرفة وغيرها من الصفات الموروثة والمكتسبة ونظام كهذا يسهر على مصلحة المواطنين الذين العدو سياسيا لتحقيق هدف عام هو السعادة².

إلا أن جان جاك شوفاليه يرى أن هذه الديمقراطية التي حصل من الشعب السيد الأول والأخير، ناقض كل المفاهيم التي تعطينا إياها الكتب المقدسة، ومؤلفات الفلسفة حول قوة الملك في الملكية، وقوة كبار الأمة في الأرسقراطية³، لأنها نفر بقوة واحدة هي قوة المواطن، إلا أن جاك ماريتان يرى أنه من السخف تصور شعب يحكم نفسه منفصلا عن نفسه ومن فوقها، فهذه فكرة جوفاء كما يقول وأسطورة جعلها روسو وسيلة لنقل السلطة من الملك إلى المواطن، اما الديمقراطية التي يزعمها روسو ما هي إلا ديمقراطية مريضة فتجريد النواب

¹ - محمد كامل ليلة: النظم السياسية، مرجع سابق، ص ص 151-154.

² - عبد الفتاح حسنين العدوي: الديمقراطية وفكرة الدولة، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، دط، 1964، ص ص 19-20.

³ - جان جاك شوفاليه، مقدمة في علم السياسة، مرجع سابق، ص ص 512-514.

وممثلي الشعب من أي حسن في الحكم يتضمن في الحقيقة إمتلاكهم لهذا الحق بالتوكيل والممارسة¹.

وفي الأخير تستطيع القول أن التعاقد الاجتماعي هو تحقيق لفكرة المواطنة، أي تحقيق لسيادة الشعب وممارسته لحقوقه السياسية وواجباته وهذه الممارسة هي تحقيق للديمقراطية

¹ - جان ماريتان: الفرد والدولة، تر: عبد الله امين، مراجعة صالح الشماع، قرياقوس موسيس، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، دط، 1962، ص ص 62-65.

الخطامة





خاتمة:

بعد بحثنا في موضوع التربية على المواطنة في الفكر السياسي الحديث والتركيز على الفيلسوف جون جاك روسو كنموذج واطلاعنا على هذا المفهوم قبله وبعده خلصنا إلى جملة من النتائج حددناها في النقاط التالية :

أولاً : أن الإنسان هو الأصل والكيان الحقيقي في المجتمع وهو المخلوق الوحيد الذي لا بد له من العناية والتنشئة في سن مبكرة، وحسبنا أن نذكر أن روسو أول من أعطى قيمة لحياة الإنسان بل أكثر من ذلك فهو دافع عن سن الطفولة وأعطى لها ولاء كبيراً، وذلك بالتربية والتنشئة. والتربية التي أرادها هي الطبيعة الخالية من كل الشوائب، بل كانت هذه المرحلة مجرد تمهيد لتأهيل الفرد للمواطنة الشخصية التي تتحقق فيما بعد من خلال ممارسته للسلوك السياسي، وروسو نفسه أبدى العلاقة الوثيقة بين التربية والسياسية، فلا يمكن أن نتحدث عن الإنسان وخضوعه الأخلاقي والتغافل عن سلوكه السياسي، فقد بنى الإنسان دولاً وإمبراطوريات وأوجد عادات ومؤسسات، وعلم السياسية هو دراسة السبب الذي يجد معه الإنسان الضرورة لإقامة حكومة، وكل دراسة لعلم السياسية تتجاهل عنصر الإنسان ولا تدخله في حسابها ومعدلتها هي دراسة عقيمة .

ثانياً : نظرية العقد الاجتماعي جاءت من أجل أن تدافع عن حرية الأفراد والقضاء على الاستبداد الطبقي، ولو جاز لنا التعبير عنها نقول بأنها تمجيد للمواطنة القومية، فيكفي أن تكون المواطنة شكل من أشكال التعاقد بين الفرد والدولة، لأن الفرد لا يحس بمواطنته إلا بإندماجه في إقليم معين وأرض يحس بأنها ملك له، كما هي ملك لغيره وأمانة في عنقه، فالمواطنة ما هي إلا علاقة الإنسان بكيان سياسي معين ولكن إنسانيته تتم عن علاقته بكل ما هو كائن وما هو صائر، ويقدر ما يصبح تصورنا للمحتوى الإنساني كامل تصبح المواطنة أخصب، وتصبح أدنى للمفهوم الاجتماعي لحقوق المواطن وواجباته. وبنظرية العقد الاجتماعي كون لنا روسو عصر الإنسان السيد بكل حقوقه الكيانية والسياسية والاجتماعية معا .



ثالثاً: القانون حق من حقوق المواطنة لديهم، فهم المسؤولون عن تشريعه والخضوع له، لأن المواطن إذا ما سن القانون ضمن حقوقه وتمتع بالحرية مقابل ذلك حارب روسو كل نظام رأى فيه ضعفاً لروح المواطنين، ودعى لنظام الناجم عن سيادة المواطنين ألا وهو النظام الديمقراطي وهو النتيجة المنطقية لذلك الجسد السياسي. إذن ما نخلص إليه اتجاه "فكرة المواطنة عند جون جاك روسو" هي فهم المواطن لحقه وممارسته للمصالح السياسية، وهي قبل كل شيء إمتلاك المواطن لحق الوطنية أي العيش في كنف مجتمع مدني.

رابعاً: المواطن عند روسو يعايش وجهتين هما وظيفة المواطن، ووضعية المواطن. وظيفته تتحقق من خلال اندماجه في مجتمع مدني، أما وضعيته فنكتمل عندما يمارس كل حقوقه السياسية من سلطة وسيادة مطلقة، وتصبح هناك علاقة كبيرة بين المواطن والمجتمع وهي مدلول المواطنة، وهذا يؤكد لنا بأن حقيقة البشر ليست في صفتهم أفراد، بل في كونهم أعضاء مجتمع، وعليه توصل روسو إلى حقيقة المواطنة، وذلك بتسليط الضوء على وضعية المواطن ووظيفته "بأنها السلطة المطلقة والقوانين والأخلاق السامية" وهذه المعطيات التي تمثل منبع مواطنة الأفراد تخترق عمق الإنسان، وهذا يؤكد لنا بأن المواطنة عند روسو مقولة أخلاقية وقومية وطنية في آن واحد.

خامساً: وجدنا أن مفهوم المواطنة يمتد في عمق التاريخ الإنساني وليس وليد العصر الحديث في الفكر السياسي الغربي في حين يغيب هذا المفهوم في التراث العربي الإسلامي بصورته وشكله الحالي وتعرفهم عليه من خلال البعثات والرحلات العلمية للعرب إلى أوروبا وإذا كنا في وطننا العربي لا نزال في بداية مرحلة التربية على المواطنة مقارنة بالمجتمعات الغربية نظراً للمعيقات السياسية والاجتماعية والثقافية، فإننا نأمل مستقبلاً أن لا نبقي فقط في هذه المرحلة بل نرتقي إلى مرحلة التربية من أجل المواطنة والتي وصل إليها الغرب على عكسنا نحن العرب المسلمون

قائمة المصادر والمراجع



قائمة المصادر مراجع:

القرآن الكريم

أولاً: قائمة المصادر بالعربية:

1. جان جاك روسو: اصل التفاوت بين الناس، تر: بولس غانم، موفم للنشر، الجزائر، دط، 1991.

2. جان جاك روسو: اعترافات جان جاك روسو، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ج1، ط1، 1968.

3. جان جاك روسو: العقد الاجتماعي، تر: ذوقان قرقوط، دار القلم، بيروت، لبنان، دط، دت.

4. جان جاك روسو: هواجس المنتزه المنفرد بنفسه، تر: بولس غانم، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، بيروت، دط.
قائمة المصادر الفرنسية

5. jean jaques rousseau: emile ou de l'education, presente par francois et pierre recharde,...sons eddition, sans annee, p206.

قائمة المراجع بالعربية

6. <http://www.aljabired.net/nation-citoyen2.htm>

7. إبراهيم عبد الله ناصر وعاطف عمر بن طريف، مدخل إلى التربية، دار المفكرون للنشر والتوزيع، عمان، دت.

8. إبراهيم مذكور، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة للشؤون المطابع، القاهرة، 1983،

9. ابن منظور، لسان العرب، تحقيق عبد الله علي كبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، ج3، دت.

10. أبو اليزيد علي المتيت، النظم السياسية والحريات العامة، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ط4، 1984.

11. أبو نصر الفارابي، السياسة المدنية الملقب بمبادئ الموجودات، تحقيق فوزي متري النجار، المطبعة الكاثوليكية، بيروت.

12. أحمد أمين وزكي نجيب محمود: قصة الفلسفة الحديثة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ج1، ط5. 1967.

13. أحمد زكي بدوي، معهد العلوم الاجتماعية إنجليزي فرنسي عربي، مكتبة لبنان، د ط، 1993.
14. إسماعيل زروخي، الدولة في الفكر العربي الحديث، دار الفجر للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1999.
15. أفلاطون: الجمهورية، تقديم جلالى الياىس، موفم للنشر، الجزائر، د ط، 1990.
16. أندري لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد 01، منشورات عويدات، بيروت، ط2، 2001.
17. أنور عبد الملك، الفكر العربي في معرفة النهضة، ت بدر الدين عرودكي، دار الآداب، ط3، 1981، ص 86.
18. بشارة عزيز، المجتمع المدني، دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 2000.
19. بول هازار، الفكر الأوروبي في القرن الثامن عشر من منتيسكيو إلى لسنج، ترجمة غلاب محمد، مراجعة إبراهيم بيومي مذكور، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، ج2، د ط، د ت.
20. بيرنار غروتر يزن، فلسفة الثورة الفرنسية، ترجمة عيسى عصفور، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، ط1، 1982.
21. جان جاك شوفالييه: تاريخ الفكر السياسي من المدينة الدولة الى الدولة القومية، تر: محمد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1993.
22. جان فال، الفلسفة الفرنسية من ديكارت إلى سارتر، تر: الأب مارون خوري، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط3، 1982.
23. جان ماريتان: الفرد والدولة، تر: عبد الله امين، مراجعة صالح الشماع، قرياقوس موسيس، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، دط، 1962.
24. جورج سباين: تطور الفكر السياسي، ج4.
25. جورج سباين، تطور الفكر السياسي، ترجمة حسن جلال العروسي، مراجعة عثمان خليل عثمان، دار المعارف، مصر، ج1، ط4، 1971.
26. جورج سباين، تطور الفكر السياسي، ترجمة علي إبراهيم السيد، مراجعة راشد البراري، دار المعارف بمصر، ج4، د ط، 1971.

27. جورج نهرا، الإطار المرجعي للتربية على المواطنة، المركز التربوي للبحوث والإنماء، لبنان، ط1، 2021.
28. حسن الجباري، أصول التربية في ضوء المدارس الفكرية، دار الأمل، الأردن، 1993.
29. خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، مطبعة الدولة، تونس، 1284هـ.
30. رابح تركي: النظريات التربوية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 1982.
31. رايmond كافيليا كيتيل، العلوم السياسية، ت فاضل زكي محمد، مكتبة النهضة، بغداد، نيويورك، ج1، ط1، 1963.
32. رفاة رافع الطهطاوي، مناهج الألباب المصرية في مباحث الآداب العصرية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2014.
33. رولان موسيه وآخرون، تاريخ الحضارات العام للقرن الثامن عشر، ترجمة يوسف أسعد داغر وفريديم داغر، منشورات عويدات، بيروت، ط2، 1987.
34. رومان رولان: افكار روسو الحية، تر: محمود يوسف الزايد، مراجعة كمال اليازجي، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1961.
35. ز. أ. لبغين، الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث في لبنان وسوريا ومصر، ترجمة: بشير السباعي، دار ابن خلدون، بيروت، 1978.
36. سالم علي سالم القحطاني، التربية الوطنية مفهومها أهدافها تدريسها، مجلة رسالة الخليج العربي، مكتب التربية العرب بدول الخليج، العدد 96، 1996.
37. سالم علي سالم القحطاني، التربية الوطنية، مفهومها، أهدافها، تدريسها.
38. سامح فوزي، المواطنة، مركز القاهرة للدراسات، حقوق الإنسان، القاهرة، 2007.
39. عبد الأمير شمس الدين: الفكر التربوي عن ابن طفيل، دار اقرأ للنشر والتوزيع والطباعة، بيروت، ط1، 1984.
40. عبد الحلو، معجم المصطلحات الفلسفية، فرنسي عربي، مكتبة لبنان، دط، دت.
41. عبد الرحمان بدوي، أفلاطون، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط4، 1964.
42. عبد الفتاح حسنين العدوي: الديمقراطية وفكرة الدولة، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، دط، 1964.

43. عبد الكريم أحمد: دراسات في النظرية السياسية الحديثة، فقسم البحوث والدراسات الاجتماعية والاقتصادية، دط، 1973،
44. عبد الكريم الخطيب: الخلافة والامامة، ديانة... وسياسة، دراسة مقارنة للحكم والحكومة في الاسلام، دار الفكر العربي، مصر، ط1، 1963.
45. عبد الله عبد الدائم: تاريخ التربية، مطبعة جامعة دمشق، دط، 1959.
46. عبد الله سيد الدائم، التربية عبر التاريخ من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين، دار السلام، ط5، بيروت، 1984.
47. عبد الله قلي وفضيلة حناثي، التربية العامة، دن، الجزائر، 2009.
48. عثمان نوية، المفكرون من سقراط إلى سارتر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، دط، 1970
49. العربي فرحاتي، تربية المواطنة، سلسلة دفاتر المخبر، جامعة بسكرة، العدد 01، 2005.
50. علي زيعور، أوغسطينوس، مع مقدمات في العقيدة والفلسفة الوسطية، دار إقرأ، بيروت، لبنان، ط1، 1983.
51. علي عبد المعطي محمد: اتجاهات الفلسفة الحديثة، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، دط، 1993.
52. عمار بوحوش: تطور النظريات والانظمة السياسية، المؤسسة الوطنية للكتاب، دط، 1984..
53. عمد محمد التومي الشيباني: تطور النظريات والافكار التربوي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، دط، 1971.
54. الفارابي، المدينة الفاضلة ومختارات من كتاب المللة، موفم للنشر، الجزائر، ط2، 1990.
55. فوزي ابو دياب: المفاهيم الحديثة للأنظمة والحياة السياسية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، دط، 1971.
56. فولتير، الرسائل الفلسفية، ترجمة عادل زعيتير، دار المعارف بمصر، دط، 1959.
57. كامل محمد محمد عويضة، الفلسفة السياسية، مراجعة محمد رجب البيومي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1995.

58. محمد حسين هيكل: جان جاك روسو حياته وكتبه، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط2، 1965.
59. محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1997.
60. محمد عابد الجابري، التراث والحداثة، مركز الدراسات الوحدة العربية، بيروت، 1991.
61. محمد عبد المعز نصر: في النظريات والنظم السياسية، دار النهضة العربية، بيروت، دط، 1981.
62. محمد عطية الأبراشي: جان جاك روسو وآراءه في الإصلاح الاجتماعي، دار القومية للطباعة والنشر، د ط، د ت
63. محمد فتحي الشنيطي، نماذج من الفلسفة السياسية، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، د ط، 1961.
64. محمد كامل ليلة، النظم السياسية الدولة والحكومة، دار الفكر العربي، د م، د ط، 1967، 1968م.
65. محمد ناصر: قراءات في الفكر التربوي، وكالة المطبوعات الكويت، ج1، ط1، دت.
66. منير البعلبكي، موسوعة المورد، دائرة المعارف، دار الملايين، بيروت، ط1، ج3، 1980.
67. موريس شربل وميشال ابي فاضل: روسو حياته ومؤلفاته واثاره، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1978.
68. مي مكى شبر: أثر المكتبة على ميول الطفل، المجلة العربية للمعلومات، مجلة علمية نصف سنوية، ادارة التوثيق والمعلومات، تونس: 1997.
69. ويل ديورانت، قصة الفلسفة، ترجمة أحمد الشيباني، منشورات المكتبة الأهلية، بيروت، ط2، د ت.
70. يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط، دار المعارف، بمصر، ط3، د ت.

قائمة المراجع بالفرنسية

71. <http://www.liberaldemocraticpartyofiraq.com/serendipity/index.php?/archives/2253.html>

72. Michel Coz: Jean Jacques Rousseau Librairie Vuibert, Paris, sans année.

73. Morcel Prelot: Histoire des idées politiques - Dalloz Printed in France - quatrième édition

74. Morcel Prelot: Sociologie politique jurisprudence générale, Dalloz, Paris, 1973.

ثالثا: الموسوعات والمعاجم الفلسفية

75. ابن منظور، لسان العرب.

76. أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج 6.

77. إسماعيل بن نجيبها، الجوهرة الصحاح تاج اللغة، ج 6.

78. بطرس البستاني، محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت.

رابعا: المعاجم باللغة الفرنسية

79. les élèves de l'école boudamontal, dictionnaires de la langue française, institut pédagogique national algérie, son édition son année

فهرس المحتويات



فهرس المحتويات

الصفحة	العنوان
	اهداء
	شكر التقدير
أ-ج	مقدمة
الفصل الأول: مفهوم التربية والمواطنة في الفكر السياسي الغربي والعربي الإسلامي	
16-08	المبحث الأول: مفهوم التربية والمواطنة (لغة واصطلاحاً)
28-17	المبحث الثاني: التربية على المواطنة في الفكر السياسي الغربي
35-29	المبحث الثالث: التربية على المواطنة في الفكر السياسي العربي الإسلامي
الفصل الثاني: التربية الطبيعية والتأهيل للمواطنة في فكر جون جاك روسو	
43-38	المبحث الأول: جون جاك روسو حياته وظروف عصره .
46-43	المبحث الثاني: التربية والاجتماع الانساني
51-47	المبحث الثالث : المبادئ التربوية العامة
الفصل الثالث: المواطنة والحكم الديمقراطي من منظور جون جاك روسو	
60-53	المبحث الأول :العقد الاجتماعي والمواطنة
63-60	المبحث الثاني :الإرادة العامة والسلطة المطلقة
72-63	المبحث الثالث :أشكال الحكومة وتحقيق الديمقراطية:
75-74	خاتمة
80-77	قائمة المصادر والمراجع
	فهرس المحتويات

ملخص الدراسة:

الإنسان الاجتماعي بطبيعته ميل إلى الاجتماع مع غيره واجتماعه هذا يقتضي إقامة تنظيم سياسي يمكنه من المحافظة على حقوقه وحقوق غيره، فانتقل بفعل العقد الاجتماعي من حالة الفردانية إلى الحالة الاجتماعية أي انتقل إلى كونه مواطناً يمارس السلوك السياسي ويتمتع فيها بحقوق المواطنة والتأهيل إليها الذي سيكون من خلال التربية عليها حتى يكون مواطناً له حقوق وعليه واجبات.

الكلمات المفتاحية:

التربية، المواطنة، الفكر، السياسة، جون جاك روسو.

Study summary:

Social human beings by nature tend to meet with others. This requires the establishment of a political organization that enables them to safeguard their rights and the rights of others. The social contract moves from the individual to the social situation, i.e., to being a citizen who exercises political behaviour and enjoys citizenship and rehabilitation rights.

Keywords:

Education, Citizenship, Thought, Politics, John Jack Russo